بهى الدين عوض

الخيول الشاردة

رواية




الكتاب : الخيــــــول الشـــاردة
روايـــــة

الكاتب : بهى الــدين عــــوض

الناشر :




اتحاد الكتاب
١١ أ ش حسن صبرى - الزمالك - القاهرة
ت : ٣٤١٦٥٥٠ - ٣٤١٩٨٦٨

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

الطبعة الأولى : ٢٠٠٠
رقم الإيداع : ٢٠٠٠/١٤٩٠٦
الترقيم الدولى، I.S.B.N.977-291-241-4

الغــــلاف : محمـــود الهنـدى
جرافيـــك : أرت ســـــمارت

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر
بمركز الحضارة العربية
تنفيـذ : لميـاء على عبد الحميد
تصحيـح : كمـال عبد الرســول

الخيول الشاردة

رواية

إهـداء

إلى أسرتى – واحة الظل

وفيض العطاء ....

زوجتى وابنتىَّ منى وداليا

راح يملأ عينيه بالنظر إليه وهو يمد عنقه شطر المشرق ، اقترب منه ومسح بوجه كفه الصلبة على خصلات شعره ، انحنى تحت كفه ، سرت في أعماقه فرحة مفعمة بالشوق .

ذلك الحصان الأشهب ذو أصول عربية ، فهو الذى أرخ بشائره ، وحمل له مع الزمان عطر أيامه . حدق فى حصانه طويلاً ثم فى لمح البصر امتطاه ، رفع هامته من فوق ظهره وشد صدره ، جذب إليه وثاقه ودفعه إلى الأمام ، انطلق يدق الأرض ويعبر الزمان والمكان ، وما أن أتى إلى الأرض البراح حتى أوقفه ونزل من عليه وربطه فى شجرة جميز وارفة الظل ، جلس صفوان تحتها ووضع رأسه بين يديه وطفق يتأمل ما حوله ، إلى الأرض والنهر والأشجار والزروع المنبسطة ، والشطآن والماء المنسكب من السواقى الدائرة والسماء التى فى لون الصفاء . أخرج ذاته من قاع السنين ، يقولون فى قريتك : إنك مثل أبيك فى الملامح والطباع . فأنشأ يرسم فى رأسه صورة أبية ويلونه بأجمل الصور ، ويوشيها بمباهج الضوء حتى خرج أبوه من رأسه من وراء بوابات الزمان البعيد ، يعتلى صهوة جواد أبيض ، ويفرد شمل أثوابه الفضفاضة ويلوح له بعصا جميلة رشيقة فيروزية اللون ثم صار فيضاً من نور علوى تحركت شجونه واشتد به الوجد .

وعندما انحنى الليل يفرد بردته ويرمى ظلمته على البطاح كلها ، تألقت النجوم فى السماء ضياء ، وانساب ماء النهربرفق تلمع فى وسطه أمواجه . ركب صفوان حصانه وقد أخذته نشوة الليل وشذى نسماته إلى كوخ صغير يطل على حافة حقله ، وهناك رأى صاحبه يتوسد حزمة من القش ويمد جسمه النحيل على حصير قديم ، ويغط فى

نوم عميق ، نزل صفوان من على حصانه ببطء وتأمل الرجل بنظرة حميمة ودودة ، رآه يخشع مع خشوع الليل ، ولما جلس بجواره وندت عنه حركة وجلبة صحا النائم جزعاً من سنا نومه وانتصب واقفا وما أن عرف الرجل القادم حتى انحنى إليه وسلم عليه ، ثم دخل إلى داخل الكوخ المعروش بحطب الشتاء والصيف ، وأتى بإناء الشاى وأشعل جمرات النار وراح يقول فى سعادة غامرة : جاءتنى اليوم ابنتى وهى تلبس ثوباً جديداً فقلت لها فى دهشة : من أتى لك بهذا الثوب ؟؟

فلم ترد علىَّ ، فلما رفعت يدى عليها لأضربها أمسكت زوجى بيدى وقالت : اشتراه لها السيد صفوان .

وجعل يسترسل فى الحديث وهو يصب بيد مرتجفة الشاى ويقول بتأثر شديد :

- الكريم لا يضام يا سيد صفوان .

أخذ صفوان منه كوب الشاى وعقب : هناك كثيرون غيرى يفعلون ما فعلت يا مصباح . تطلع صفوان إلى قريته . لاحت له من على بعد يطويها ثوب الظلام وتعلوها قبور موتاها وتترنم فى أنحائها كَراوين(*) خاشعة مسبحة . هام .. وحلق صفوان فيما حوله .. واحتوته مشاهد ما يرى .. اقترب منه مصباح وتساءل بصوت خافت :

- فيما تفكر يا سيد صفوان ..؟

حدق فيه صفوان بعينين صافيتين ، وابتسم ابتسامة عريضة ثم ربت على كتفه وانصرف . أتى صفوان إلى داره المعبقه بشجيرات الليمون والبرتقال والياسمين ، نزل من على حصانه وأمسك بوثاقه وقاده إلى حظيرته . صهل الحصان ومد إليه عنقه الجميل ، داعب صفوان

(*) كَراوين : جمع كروان . ويجمع أيضا على كروان

خصلات شعره فمسح الحصان برأسه على كتف صاحبه. اتسع وجه صفوان بهاء ثم ربط حصانه فى مربضه وربت على عنقه وخرج وأحكم مزلاق الحظيرة .

اصطدمت بقدميه قطة أليفة ودودة ، انحنى إليها ولامس لونها الأبيض الذى فى لون ندوف القطن وتطلع إليه كلبه وهو يربض أمام الدار فى عظمة وكبرياء الأسود . أشار له بيده، هز الكلب عنقه ، دخل صفوان إلى داخل منزله ، أقبلت عليه زوجه تغرد على وجنتيها ابتسامة وتفرد على منكبيها شالاً أبيض اللون ، امتزج لونه بلون وجهها الأشقر الندى ، بدت فى لون الصفاء كله ، اقترب منها وطوقها بقبلة دافئة فسرت فى أوصالها مشاعر حارة . أشعل الحب السارى فى حناياها شذى السنين العذاب . أخذها من يدها ومضيا سوياً إلى حجرة ابنتيهما ريم وعبلة، وجداهما في سكرة نوم عميق وتتربع على وجهيهما طقوس الليل الموشى بأزاهير العمر البهى .

[٢]

امتدت الأرض أمامة شاسعة مترامية ، تتناثر فى ربوعها طيور «أبو قردان» التى فى لون اللبن الحليب ، وأسراب الطيور التى فى لون ألوانها. هدرت فى صدر صفوان فرحة غامرة . وقف بحصانه الأشهب ، وجعل يدق الأرض بحوافره العاصفة ، ويرفع عنقه إلى الأمام .

شد صفوان الوثاق ، صهل الحصان، انطلق بقوة يسابق الزمان والمكان، ويلقى من خلفه بذيول الغبار ولم يتوقف إلا عند جمع من الرجال. نزل صفوان من على حصانه، أخذ الحصان واحد من الرجال وربطه فى ساق شجرة عبل. لمح صفوان خاله فى الحقل وقد شمر عن

ساعديه، ويتساقط العرق من على وجهه المصقول بلفيح الشمس . جرى صفوان إلى خاله، تلقاه خاله همام بالتحية وقال والهناء يشع من عينيه :

- الأرض تجود على من يجود عليها .. يا ابن شقيقتي العزيزة .

وأضاف الخضرى والابتسامة تمشط وجهه :

- والخير يأتي إلينا من كل مكان .

عقب صفوان وهو يرسل نظراته إلى جموع الحاضرين :

- هذا من فضل الله علينا .. وبفضل أياديكم العاملة المخلصة .

أخذ همام صفوان من يده وقال وهو يشير بإصبعه إلى حقول القمح المتألقة بوهج الشمس :

- أخرجت سنابل القمح خير ما عندها .

مد صفوان نظراته فى الأنحاء المترامية، لمعت أمامه حقول الذهب وتوهجت أمواجها فى جمال وبهاء ، وتألقت باسقات النخيل فى شموخ وكبرياء ، كل شئ فى الطبيعة يحن إلى فطرته . الأبقار تخور فى المراعى الخضراء والأغنام تثغو على الشطآن ، وأسراب الطيور تزف نفسها وهى تتواكب جماعات جماعات ، والفلاحون تجذبهم الفئوس إلى الأرض العفيَّة .

صهل الحصان، التفت إليه صفوانه ، وما أن رآه حصانه حتى رفع رأسه وتفرقت خصلات شعره على الجانبين ، عاود الحصان صهيله ذهب إليه صاحبه ، وداعب خصلات شعره، اهتز الحصان وتدله ثم وقف واستقر . قفز صفوان على ظهره ولملم شمله، سحب الحصان حوافره إلى المسير.. وسار مختال الخطى يهز ذيله ويبعثر شعره فى انتشاء وخيلاء. ضرب صفوان بساقيه على جانبيه. صهل الحصان صهيلاً منغماً مرتباً . تطلع صفوان وهو فوق صهوة جواده الأشهب إلى النهر

.. لمعت المياه أمام عينيه .. وهى تنساب برفق . انتشى صفوان مثل حصانه . ثم وخزه، اندفع الأشهب يسابق الريح ، ويدق الأرض بحوافره العاصفة .. ينحنى أمامه الطريق ويستدير ويستطيل . وما أن استقرت الحوافرعلى الأرض البراح حتى هبت نسمات ندية محملة بعبق الزروع اليانعة ، والشجيرات الشذية ، وزهيرات الشاطئ البهية .

تمايل الحصان طرباً ، راح يراقص حوافره وطفق صاحبه يصافح المرامى من حوله إلى أن عانقت عيناه قريته التى لاحت زاهرة متعانقة متماسكة تحرسها رموزها . دخل صفوان قريته وكان فى انتظاره علوان وقد علق على ظهره الصخرى سلاحه . قال بأنفاس متوقدة :

- كل الرجال على أتم استعداد يا سيد صفوان ، رد صفوان بثقة ويقين:

- هذه هى شيمة أهل قريتنا دائما يا علوان .

وعرض صفوان مقترحاته وخططه ووجهات نظره .. واستمع إليها علوان جيدا ، ثم حاوره وناقشه فى بعض أمورها ، وما أن انتهيا حتى انصرف كل منهما إلى طريقة . دخل صفوان داره ، استقبلته زوجه روح الفؤاد هاشة باشة بقدومه قالت :

ـ الأحلام السارة لا تنقطع عنا . زد وعيناه لا تفارقان وجهها البض :

ـ هذا من فضل الله علينا .. وستصير حقائق بمشيئة الله .

دخل أولاد صفوان الثلاثة زهران وريم وعبلة وأحاطوه بالفرحة . التفت إلى ابنتيه ريم وعبلة رأى بشائر أنوثتهما الفواحة قد لاحت أمام ناظريه ، فتكاملت فرحته .

خرج إلى ساحة داره المطلة على بساط الأرض الخضراء ، جلس ، لاحقت عيناه مساحات النور والظل ، والأرض والسماء ، رأى الكون أمامه منبسطاً . فى رونق وبهاء ، الماء ينسكب من بين العشب والطين ،

والطيور ترسل غريدها الحميم ، والحمائم من خلف أبرجها البيضاء تثرى الأرض بالهديل . الكل فى كونه يتزيّا فى لوحات باهرة ، من لوحات الخالق البارئ المبدع المصور . أخرج صفوان ذاته من سنى عمره ، فقريته تنسج فى رأسه ملامح تكوينها ، ورجالها يسكبون فى حناياها رحيق عرقهم ، وعطر دمائهم ، وأبوه النائم فى روضة قبره يخرج مرصعاً بجواهر جوده وسخائه ، ويمتطى مطية الرياح ويحلق فى أفاق السماء .. ثم يتوارى فى عالم الغيب .. وأمه القلب الحاضر فى زمان الدنيا .. ينداح سر نورها وتخرج من قلبه الريان بشائر الغد الآتى.

[٣]

افترش مصباح الأرض تحت ظل شجرة عبل وراح يتأمل أغنامه ، يرشق نظراته فى لحمها المعجون بالدم . يغريه فيها كباشها التى تقوست قرونها واستفحلت ذكورتها ، ولما تعاظمت فى رأسه مشاهد ما يرى أخرج من جيب جلبابه نايه الذى صنعه من بوص حقله ، وأخذت أصابعه تداعب ثقوبه . انسابت ألحان الفطرة وسرت فى بهاء الكون ، غرق فى أنغامه بعد أن صهره الوجد والشجن ، سقطت دمعاته ولمعت على خديه . استدارت من حوله أغنامه ، وامتزج ثغاؤها بترانيم مزماره ، تبرعمت فى رأسه حكايات موشاة بورد السنين .

جاءت بدوية حارة الشفين ، حنطية الوجه ، ليلية العينين ، تنفض عن ثوبها المزدان بحبات الخرز رحلة الجهاد الدؤوب . رأته ولم يرها ، لقد غاصت عيناه فى أعماقه أخذه النغم الآسر . جعلت البدوية الحسناء تلاحقه بنظراتها الوحشية، ولما طال مزمار مصباح ، اقتربت منه وهو سائح فى رحلة أنغامه ، دقت البدوية بعصاها على الأرض ،وقالت وهى

تحرقه بلهيب نظراتها :

- من أين جئت بكل هذه الأنغام .. أيها الفلاح القادم إلينا ..؟

رفع مصباح الناى من على شفتيه ، سكت النغم . قال وعيناه مازالتا غارقتين فى وهج الحلم المتوهج :

- ومن أين أتيت أنت .. يا ابنة الأرض البراح ؟

ضحكت البدوية الحسناء بملء فمها . تراشقت لهجتها البدوية فى أذنيه. انغرس فيها ما عرف ، ضحك وقال وهو يدفن مزماره فى حضن جلبابه :

- هذه هى أغنامى .. مثل أغنامك تماماً ، أما أنا فقادم من قريتى الخضراء .. بنت النهر والسواقى والغدران .. قرية القلوب .. الدافئة الودود.

ردت وعيناها تحلقان فى حلم جميل :

- كلامك مثل أنغامك أيها الفلاح الندى القلب .

دارت الأغنام واستدارت واستطالت ، وراحت كباشها تلاحق نعاجها. انحنى مصباح إلى الأرض ، والتقط حصيراً وبسطه أمامه تحت الشجرة . ، وما أن رفع قامته حتى كانت البدوية الحسناء قد توارت عن عينيه . التفت يمينه ويساره .. لم يجدها . انتابه الخوف والجزع وجعل يدقق النظر فى المرامى من حوله ، فلم يعثر لها على أى أثر . . "ترى من تكون تلك التى جاءت ؟: أمعقول أن تحضر ثم تختفى هكذا فى لمح البصر ؟ هل غابت فى تلك الأحراش المترامية ؟ : أم هى روح من تلك الأرواح الهائمة ؟ يقول الليثى :

إن هذه الأرض تمتلئ بالجان وبالأرواح الشاردة .. ويحك يا مصباح .. ويحك يا مصباح " أمسك مصباح بعصاه ، وأنشأ يدفع أغنامه أمامه على الطريق وأسرع بها الخطو حتى أتى إلى الأرض الخضراء التى انغرست فى طينها أرجل الرجال .. ولمعت فوقها رءوس الفئوس الصلبة.

وصل مصباح إلى ظل الشاطئ .. وأوقف أغنامه وجلس يجتر ما رآه .. ولم يوقظه من شروده إلا الخضرى .. وهو ينزل إلى الماء ، ويغسل يديه وساقيه من آثار الطين ، ثم يخرج ويأتى إلى جواره ويجلس وتعلو وجهه ابتسامة مجهدة . وبعد قليل يحضر علوان وزيدان .. والليثى .. وفى إثرهم زوجات الرجال . . جئن يحملن فوق رءوسهن زاد الطعام ، خرج الجميع من الحقول وجلسوا على الشاطئ ، تسرح فى عيونهم أمارات الجوع . أكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، وبعد ذلك قام الليثى وأشعل ركية من النار ووضع فوقها إناء الشاى ، توهج الشاى فى الأكواب ارتشفو ما فيها . استراحوا قليلاً ثم نزلوا إلى حقولهم ثانية بينما بقى على الشاطئ زيدان وعلوان والليثى ومصباح يتجاذبون أطراف الحديث قال الليثى بنبرة جادة :

– يبقى أن تعرفوا الحقيقة .

تساءل علوان :

– أى حقيقة ..؟

– عصبة الأشرار يقطعون الآن الطرق .. ويهددون القرى والكفور البعيدة فى بيوتهم وأرزاقهم .

قال زيدان وعيناه تمتلئان بالغضب :

– ومن الذى أخبرك بذلك .؟

– الكل فى الجيرة يقولون ذلك .. وهذه هى الحقيقة .

رد علوان بصوت حازم .:

– ونحن لهم بالمرصاد .

وأضاف زيدان :

– ولن نستسلم لشرورهم .. وسنقاومهم بكل قوة :

اعتدل الليثى فى جلسته وعقب :
- وهذا هو أيضاً ما قاله السيد صفوان .
علت علامات القلق وجه مصباح، طفق ينصت إلى الحديث بإمعان .
استرسل الليثى يقول :
- وهذا الأمر هو الذى جعل السيد صفوان يفكر فيه طويلاً .. ويجعله همه الأول .
تساءل زيدان :
- وهمام ..؟
أجاب الليثى :
- يبعد العمدة لكل شىء.
ومضى يقول :
- لقد قسم السيد صفوان المناطق .. وحدد المهام .. والمهمة الكبرى ستكون لهمام . ردد الجميع فى صوت واحد :
- وهو أهل لها .. وهو أهل لها .
انتصب مصباح واقفاً ، وأخذ يهش بعصاه على أغنامه ، يدفعهم إلى طريق العودة. ثاغت الأغنام ، واغبر الطريق ، وتناثر تبر الشمس ، وتعسجد بعضه فى ساحة الغروب. شد مصباح خطاه ، وهو يحاور فى رأسه أحاديث الرجال .. وما أن تبرعمت الغاية منه حتى دلف إلى حلمه الوارف ، إلى البدوية الحسناء الوحشية العينين . "من تكون تلك المرأة يا مصباح .. أيقتل الأشرار هذا الحلم ؟ أيموت النغم على شفتيك؟ لا .. لا لن يحدث ذلك فهذا مزمارى ، الذى أنشد به آهات وجدى " وأخرج مصباح نايه من حضن جلبابه.. والشمس تستقر فى مخدعها.. والأشجار تسكرها لفحة الريح . أرسل مصباح أنغامه هذه المرة بشدو

آخر ، لا يعرف من أين أتاه ، يعرف فقط أنه قد صار قلباً سخياً يبوح بسر ما فيه . وانسابت الأنغام مع الطبيعة وسكونها ومع حفيف الشجر وهفيفه، ومع غريد الطير ونواحه ولما أرسل الليل وشاحه ، كانت قد سبقته أغنامه، شدتها مدافئ حظائرها، وجد نفسه وحيداً يسامر الليل. ضحك، ابتسم وبرقت عيناه . توهجت حسناؤه البدوية حشية النظرات.. التى صارت فى عينيه فيضاً من قبض الريح .

تألق وجه مصباح بالوجد ، وصفت عيناه بالصفاء . دخلت عليه زوجه وهو فى نشوة الحلم المنسكب على كل جوارحه وقالت وهى تسمر فيه نظراتها :

- أتركت الأغنام تأتى وحدها يا مصباح ؟

ردت ابنته خضراء العينين :

-جاءت كلها يا أمي ولم تنقص واحدة .

عقبت الأم فى اقتضاب :

- تدافعين دائماً عن أبيك يا ابنة مصباح .

غاصت كلمة ابنة مصباح فى أعماقه ، وسرت بين لحمه وعظمه ، ولبست كل أثوابها وحرائرها وتوشت بجواهر ما فيها . أخذ مصباح ابنته بين ذراعيه وراح يقبلها وهو متوهج النفس شاكراً لله نعمه التى لاتحصى ولا تعد أن وهب له ابنة خضراء العينين .

جاء باقي أولاد مصباح بين يديه ، فأخذ يلاعبهم ويلاعبونه ، يحكى كل واحد منهم ما فعله اليوم ، وما أن جاء الدور على أبيهم مصباح .. ليحكى لأولاده ما فعل فى هذا اليوم حتى تلجم لسانه وكأنه قد شل تماماً قالت زوجه متشفية :

- لم لم تقل شيئا ؟ لماذا لا تتكلم يا مصباح ؟

قل لأولادك ماذا فعلت هذا اليوم ..؟

تدخلت الابنة خضراء العينين فى التو وقالت وهى تنظر إلى أبيها دعيه يا أمى سيقول لنا غداً ما فعل . افترستها أمها بنظرات غاضبة ، أخذ مصباح ابنته خضراء العينين ووسد رأسها بفخذه وراح يغنى لها وهو يداعب خصلات شعرها الليلى إلى أن غرقت فى سبات عميق .

كان كل من فى الدار قد نام .. لاحت من نافذة حجرته حبات النجوم .. لامعةً باهرةً " كل شئ يا مصباح خاضع ساكن .. لقد سكب علينا الليل رائحته .. أخرج من أعماقه أسراره . قلبى يهفو إلى مزمارى.. إلى أوتارى .. النغم الحبيس فى صدرى يريد أن يخرج آهاتى من بين ضلوعى .. " وما أن أتى مصباح بمزماره ، وقبل أن يضعه على شفتيه ، حتى انطلقت خارج الدار طلقات نارية ، وتتابعت واشتدت . انتفض مصباح من مكانه ، واستيقظت زوجته وبناته ، تلاحقت الطلقات وما هى إلا دقائق حتى كان كلب صفوان ينبح عاليا تتبعه الكلاب كلها . توالت طلقات النيران من أماكن متفرقة ، من دور همام وعلوان وزيدان والليثى وغيرهم . التصق أولاد مصباح به ، حاول مصباح الخروج ولكنهم شدوه إليهم . وما هى إلا دقائق أخرى .. حتى جرى مصباح إلى باب داره وفتحه على مصراعيه .. فرأى صفوان قد امتطى صهوة حصانه الأشهب .. يشق به ظلمة الليل المترامية .

[٤]

ما أن صحت الشمس ووثبت على مدفأة الغروب حتى كان منزل صفوان يغص بالرجال وهو قد جلس شامخ الهامة لامع العينين ، وبجواره خاله همام يلتقط من أفواه الناس حديث البارحة .

قال علوان وهو يوجه حديثه إلى صفوان :

- لقد حملنا السلاح وبحثنا عنك فى كل مكان فلم نجدك .

وأضاف زيدان :

- وأمضينا الليل بطوله .. فلم نعثر لك على أى أثر .

عقب عبد الرشيد :

- وهل من يركب الأشهب يلحقه أحد ؟ :

دارت العيون إلى عبد الرشيد وهو فى عباءته ، يداعب إصبعه حبات مسبحته ويمضى ويقول :

- الرجال الأشداء لا يوقفهم أحد .

بادرهم همام بصوت حاسم :

- من جاء إلينا معتدياً لابد أن نخرج له سيوفنا المسنونة حتى لايذبحنا بسيوفه .

اعتدل صفوان في جلسته ، وصوب نظراته إلى خاله همام حينا ، وإلى عبد الرشيد حيناً آخر ثم قال بثقة :

- بالضبط هذا ، ما قاله خالى همام وعبد الرشيد هو الذى جعلنى أطارد هؤلاء المعتدين لأنهم جاءوا إلينا ليرهبوننا ، وليزرعوا فينا الخوف ونحن إذا خفنا مرة خفنا الثانية واذا خفنا الثانية خفنا الثالثة .. ثم بعد ذلك تخور عزائمنا .

اشرأبت الأعناق إلى السيد صفوان وهو يرسل حديثه :

- لقد خرجت بالأشهب وفى اثره كلبى عندما رأيت بالقرب من دارى شبحين يحملان السلاح .. اندفعت إليهما بحصانى وأطلقت سلاحى . أماكلبى فقد انقض على واحد منهما ومزق لحمه ثم فر منه ورحت ألاحق الآخر حتى فرّا هاربين فى حقول الأذرة الشاسعة .

تساءل مصباح مسبل العينين :

- أنت وحدك تفعل كل هذا يا سيد صفوان ؟

عقب علوان وزيدان فى صوت واحد :

- السيد صفوان لا يعرف الخوف :

تدخل عبد الرشيد وقال ولحيته البيضاء تهتز أمام صدره :

- ما فعله السيد صفوان هو الصواب بعينه وسكت مليا ثم عاد يقول وهو يفصل حروف الكلمات :

- هذه الهجمة الجسورة الشجاعة . . ستجعلهم يعملون لنا ألف حساب بعد ذلك . ومضى يقول وقد تألقت عيناه نوراً :

- ما أعظم أن يكون الإنسان سيد نفسه .

تدخل همام وهو يلوح بيده ويطلق حديثه كالسهام الراشقة :

- سنطارد هذه العصبة أينما كانوا بكل قوة .

انفض الناس وفرغ بيت صفوان من زواره ، وهو فى حالة من السعادة والسرور . لقد سرى الحديث فى حناياه ، وبعث فى رأسه طموحات الأمل الكبير ، وبسط فى مخيلته شراع المجد . ذهب الى أمه قوت القلوب ، وجلس بجوارها ، وطفق يتأمل عمر الزمان الذى خط فى وجهها الصافى رموزه قال لها بصوت يفيض براً وحباً ومودةً :

- ما قولك فيما حدث يا أماه ؟

لمع بريق من المعانى الجميلة فى عينيها وقالت بصوت عميق :

- أنتم ذرية طيبة يا ولدى الحبيب ، يربطكم عرق دساس ، تجرى شرايينه فى أصلابكم وتسرى فيكم دماء حارة غلابة .

تهلل وجه صفوان بشراً . . أضاءت الفرحة وجهه . . فقام وقبل يد أمه ورأسها . قالت له ضاحكة :

- ألم أقل لك . إنكم جميعا من ذرية طيبة . . تحملون تلك القلوب الندية .

خرجت قوت القلوب إلى شرفة المنزل وراحت تحدق فى البراح من حولها ، رأت نخلتين باسقتين على مرمى البصر تصافحان وجه السماء ، دققت فيهما النظر ، سبحت خواطرها فى بحر الماضى العاتى ، حدثتها الأمواج والشطآن عن بواكيرها الأولى الفواحة وشذى السنين التى ولت ، عن أولئك الذين شدوا وثاق الجسور الممتدة بين الشطآن . أخرجت السنون أيامها ولياليها التى تنبع من منابع قريتها وأسرار حكاياتها وعشقها المدفون فى حشاياها . تذكرت أباها الشامخ الهامة الممشوق القوام وأمها القمرية الوجه ، وتلك الذرية الطيبة التى من ذاك الغرس " لا يا قوت القلوب . . لن تقطع هذه العصبة الشريرة من قريتنا بساتين الورود والزهر . . لن يطفئ شرهم فينا نور القلب لن يقضوا على عواطفنا الحارة الفوارة " .

تنهدت قوت القلوب تنهيدة حارة وعادت تناجى نفسها . " هيهات هيهات لن يذبل الغرس . . فالبذرة فينا . . قوية . . ممتدة فى أعماق الأرض . . معتقة بخمر العشق " . توقفت قوت القلوب عن خواطرها على صوت عذب ووجه مليح ينحنى إليها برفق ويقول فى حب :

-قهوتك . . يا عمة قوت القلوب .

صحت عينا قوت القلوب السابحتين فى سنى الماضى البعيد . . واستقرتا على ذاك الوجه الرائق الصافى . . المسبوك بحرارة الود . . أخذت من اليد المدودة إليها فنجان القهوة ووضعته أمامها . . أمسكت بيد روح الفؤاد . . وقالت فى حنو عميق :

- اجلسى بجوارى يا ابنتى العزيزة .

جلست روح الفؤاد بجانبها . . تنحنى عيناها إلى أسفل فتنسكب

من رأسها جديلتا شعرها وتلامسان الأرض . صهل الحصان الأشهب علا صوته .. رفعت روح الفؤاد رأسها .. ودارت عيناها يمنة ويسرة ثم لاح في وجهها قلق كان مسجوناً في أعماقها. بادرتها قوت القلوب قائلة بكلمات واثقة :

- لا تخافي على زوجك صفوان .. يا عزيزتي فمن يركب الصعب لا يعرف الخوف .

وبلعت قوت القلوب ريقها واسترسلت تقول بعينين خاشعتين :

- زوجك صفوان من ذرية أولئك الرجال العظام .. أبوه كان مثله .. وجده كذلك .. كانا يركبان الصعب .. ولا يعرفان الخوف . إنهم جميعا .. لا يعرفون القهر .

ومضت تقول وقد تألقت عيناها :

- لم يحن أى واحد منهم رأسه لأحد . الشجاعة والنجدة .. والكرم والمروءة هى صفاتهم .. هى شمائل تلك الذرية الطيبة .

تلون وجه روح الفؤاد بلون المعانى وتزين بتلك الكلمات المتوهجة . غرد الصوت الحبيس فى أعماق روح الفؤاد .. ركب مطايا حلمها المتألق" صافحت قوت القلوب وجه روح الفؤاد سبرت نظراتها أغوارها تنفست بشذى ذاك الماضى العتيق المذاب فى قوارير السنين .

قامت روح الفؤاد وخرجت .. وجاءت الى الجدة البنتان المليحتان ريم وعبلة ، بسطت عليهما جدتهما نظراتها الحنونة ، سكن وجها البنتين الجميلتين .. وتألق السحر فى مآقيهم انثال فيض الحب من قوت القلوب دافقاً .. قالت للبنتين الحبيبتين :

- زواج مبارك .. وذرية صالحة .. بمشيئة الله تعالى .

وأخذت البنتين وقالت :

- هيا بنا إلى الخارج .. إننى متشوقه إلى نساء .. وبنات قريتنا .

وزارت مع حفيدتيها نسوة القرية وبناتهن اللائى كن يجلسن فى دورهن ، يعدون الطعام لأزواجهن وأولادهن ، وخرج الحب سخياً من القلوب الودودة وسكن حنايا الدور . تجمعت الصبايا المليحات حول الجدة قوت القلوب وقلن فى صوت واحد :

- شرفت الدور يا عزيزتنا الغالية .

راحت قوت القلوب تقبل رءوسهن وتمسح بيدها على ظهورهن وتقول وعيناها تسافران على متن الريح :

- يا حفيداتى الجميلات " قريتنا تجود لنا بكل ما فيها .. هى فى لون الصفاء كله .. الحب منقوش فيها .. والود يسرح فى حناياها . هى ماضينا وحاضرنا .. مستقبلنا . وغابت عيناها وراحت تحكى حكايات جميلة خضراء فى لون زروعها ، بيضاء فى لون قلوبها الندية .

[٥]

امتطى همام حصاناً جميلاً يصير إذا أشرقت الشمس فى لون الصهباء ، وخرج الأشهب والأصهب يختلان الخطى على الطريق ، وكان النهار قد انداح على الكون ، ولمعت على بساطه حقول القمح ، وتراشقت على جوانبه أشجار الكافور والصفصاف والعبل ، وغنت الفلاحات فى رحابة أغنيات الحب المشبوب بعذاب الشوق . أنشأ همام يلاحق ما يراه بعينيه الصقريتين ويقول فى نشوة :

- الأرض تزهو من حولنا ياابن شقيقتى العزيزة .

- كل ذلك بفضل الله .. وبسواعد الرجال فى قريتنا يا خالى همام .

شد همام وثاق حصانه وقال وهو يهم بالانطلاق :

- كما اتفقنا يا صفوان .. عليك بالبر الشرقى ، وأنا بالبر الغربى .
اندفع همام بالأصهب يسابق الريح . صهل الأصهب ، تجاوز كل الأشياء . احتوت هماماً نزعات فوارة ، عاودته تلك الفتوة العارمة ، يوم كان فتى فتيان الجيرة بأسرها . تألقت عيناه بالصفاء وهو يطالع الأنحاء المترامية ، وكلما مسه ذلك الشعور كلما أخذ بناصية الأصهب إلى الأمام . راح همام يلاحق الزمان والمكان ، ويرسم فى عينيه مسالك الدروب . مر على قرية واجتازها سريعا ثم أتى إلى كفرها ونجعها فتجاوزها حتى جاء إلى مكان موحش ممتلئ بالأحراش والمستنقعات .. يشقه طريق ضيق مترب .. وقف على أوله وطوقه بنظرات حادة وعاين ما حوله . صهل الأصهب وراح يدق الأرض بحوافره .. وهمام يتقصى بعينين يقظتين كل ما فيه .. إلى أن توقفت نظراته هنالك بعيدا .. عند أطياف أشخاص يظهرون ثم يتوارون . فكر طويلا .

" بالضبط هؤلاء هم الذين حدثني عنهم الليثى .. إنهم يأتون إلى هذا المكان خلسة ونحن فى غفلة عنهم .. ومن هذا المكان يديرون خططهم المحكمة " .

دفع همام حصانه إلى الأمام ، سار الحصان بخطوات حذرة ، راقب همام كل سكنة وحركة. ظل همام على هذا المنوال حتى منتصف الطريق.. وبعده وخز حصانه .. صهل الحصان صهيلاً مدويًا .. وجعل يرفع قائمته إلى أعلى ثم ينزل بهما على الأرض بقوة فتهتز الأرض من تحت حوافره ويرتفع من حوله غبار كثيف .. يعلو ويعلو .. ثم يهبط.. ويهبط ويتناثر على الأرض . أطلق همام قذائف من سلاحه فى أنحاء متفرقة وبعد هنيهة .. اندفع بحصانه ناحية أشباح الأشخاص .
جرت طلاسم الرجال .. متفرقة .. ثم توارت بين الأحراش ، وصل

همـام بحـصـانـه إلى نهـاية الطريق ، وهنـاك وقف الحـصـان . صـهل .. وصهل ثم دار حول نفسه في دائرة هي محيط جسمه رفع همام سلاحه إلى أعلى وأطلق عدة طلقات نارية . جمح الحصان .. وصهل صهيلاً عالياً . اندفعت الطلقات مع الصهيل المحموم . توقف الضرب .. وسكت الصهيل المحوم ، ساد المكان صمت موحش . ظل همام فترة يراقب كل شيء بقلب جسور كالصخر ، خيم السكون . انعكس نور الشمس خافتا على مسطحات المياه الراكدة . داعبت ريح مفاجئة أشجار الناحية ، امتزج حفيف الأشجار بنعيق البوم . راحت اثنتان تردان على بعضهما البعض ساوره شيء من الرهبة .. ولكنه سرعان ما تماسك . وعاد يتحرى المنطقة بدقة ، رأى بعض القبور المهجورة قد فتحت أفواهها .. وبرزت من حشاياها أعشاب شوكية .. تزهر زهورا بألوان داكنة ، وتتناثر من حولها أشجار سنط عارية .. تتخلل جوانبها بقع من المياه العفنة الراكدة .. تلعق طينها غربان كالحة . وعلى مدى البصر لاحت مجموعة من الدور الشائهة .

سحب همام حصانه وقفل راجعاً ، اجتاز الحصان الطريق وئيد الخطى . غمرت هماماً نشوة عارمة نثرت مباهجها في حنايا نفسه .. أيقظت فيه رموزًا كان يغلقها في خزائن ذاكرته .. وما أن لامست حرارتها روحه حتى أشعلت فيه جذوة شوقه الدفين لشبابه الذى ولى . أخذ الحصان يضرب بحوافره الأرض .. وهمام سادر في متاهات الزمان والمكان .. اللذين نقشا في سجل عمره أشياء لا ينضب منها الشوق .. غردت الأرض في مسمعيه .. امتدت أمامه ربيعاً زاهراً . أخرج همام من شرنقة حلمه المذهب سجايا الرجال العظام في قريته .

الأرض من حول همام تتابع وتتابع وتقترب وتقترب .. وعلى

مشارفها يسمع صهيل الأشهب .. وفوق ظهره صفوان تلوح على ملامحه أثار ما ذهب إليه . ويقترب الأصهب والأشهب من بعضهما البعض ويبوح كل منهما بما رآه .

قال همام .. وعيناه مازالتا عند أحراش الأرض .. وأشباح الرجال :

- ماذا فعلت يا صفوان ؟

يرد صفوان وهو يشد إليه وثاق حصانه .

- رأيت العجب العجاب .

- ماذا رأيت ؟

-عاينت البر الشرقي .. ورأيت أرض النخيل .. وجزر الورد .. وبساتين الفاكهة وربوعاً خضراء تفيض بالخير .

- والناس فيها ؟

- تنبض قلوبهم بالمودة والصدق .

- وماذا يقولون عنا ..؟

- يكنون لنا الحب .. ولكن ؟

تساءل همام على عجل :

- ولكن ماذا .. ؟

- أصابهم قلق وخوف من ظهور تلك العصبة الشريرة .

- بالفعل لهم من هذا الخوف نصيب من الحقيقة .

وسأل صفوان :

- وهل توصلت يا خالي إلى شيء ؟

رد همام وهو يسترجع ما رأه :

- رأيت جماعات غريبة .. وكأنني أراهم لأول مرة بالرغم من أنني أعرف كل ما حولنا .

- من هم إذن ؟

- إنهم من البلاد البعيدة .. من سكان بلاد المياه المالحة .

قاطعة صفوان فى دهشة :

- وكيف وصل هؤلاء إلى قريتنا ..؟

- ليس قريتنا فحسب .. بل وصلوا أيضا الى بعض الكفور والنجوع القريبة منا .

صهل الأشهب فرد عليه الأصهب ، دقت حوافرهم الأرض ، ارتفع التراب عالياً يرسم ذيولاً فى الفضاء . قال همام بكلمات حاسمة قاطعة :

- لابد من قطع دابر هؤلاء الأشرار .

رد عليه صفوان والحصان يهتز من تحت جسمه الفارع :

- لكى يتم ذلك .. علينا أن نعرف كل شىء عنهم .

انسابت أنغام مصباح رخيمة شجية عذبة سرت فى الحنايا والمرامى وامتزجت مع الماء وهو ينسكب من بين ضلوع النهر .. علت إلى هامات الشجر . ولثمت أغصان وأوراق الشجر .. تدافقت مع شقشقة العصافير وهى ترسم فى عيون الأفق بأجنحتها البيضاء زبد الريح تناسقت مع أغنيات الصبايا المليحات وهن يغنين للأرض . طفقت أنغام مصباح تخرج من قاع الزمان بكارة السنين .. وتشيع فى النفس لوعة الحب ووقدة الوجد والشجن .

ابتسم همام وهو يرسل نظراته ناحية النغم القادم ، ولمعت فى عينى صفوان حبات من لآلئ الدموع ، سكت الاثنان .. تتلاحق على وجهيهما إشارات .. ورموز .. تتوهج وتتألق ثم تخمد وتتوارى. ظلا مأسورين بقيثار النغم الحالم .. ولم ينتبها إلا على دبيب عصا عبدالرشيد .. نزل همام وصفوان من على حصانيهما وربطاهما فى جذعى شجرتين مورقتين . قال عبد الرشيد بنشوة :

- مصباح يغنى للأرض والناس .

رد صفوان :

- كلما سمعته .. بدت لى الحياة مضيئة الوجه بسامة الثغر .

وأضاف همام :

- وتذكرت عطر شبابى .. وبواكير عمرى الذى ولى.

يضحك عبد الرشيد .. ويداعب بأصابعه لحيته البيضاء ويقول بصوت عميق :

- ويحدثنى النغم عن شيخوختى .. ويسألنى عن زمانى وأقدارى التى مضت .

عم الثلاثة بشر وسرور .. وساروا إلى قريتهم . صفوان يسحب من ورائه حصانه ، وهمام يجذب إليه الأصهب ، وعبد الرشيد يلتف فى عباءته ويحكى له عن أسفاره فوق جمله الودود فيقول إنه طاف به كل القرى والكفور والنجوع .. وحمل عليه بساتين الزهر والورد وأحمال الشتاء والصيف وكان فى أسفاره يصحو مع إشراقة الفجر ، ويتنفس منه أنفاسه، وغزل من وبر جمله الودود ملابس أولاده وأحفاده. وبعد أن حكى عن جمله وأسفاره طوف إلى قريته ، فتحدث عن أيامها وسنيها . وأفراحها وأتراحها .. وأحداثها وسكت ملياً ثم تطلع أمامه.. فلاحت جبانة القرية فخشع قلبه وتراخت عيناه وجرت نظراته إلى قبورها التى تتوسد التراب فقال وهو يشير إليها بيد مرتعشة :

- هذه هى الحقيقة الكبرى .

فعقب همام وقد خفت صوته :

- ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .

دخل الثلاثة القرية ، وكانت الشمس تؤوبإرلى المغيب ، وسمرة

الليل قد تراخت على الدور ، وذبالة المصابيح تنفث أنوارها الواهنة من بين ثنايا حوائطها الطينية . ذهب كل واحد منهم إلى داره . ودخل صفوان إلى منزله ، استقبلته زوجه روح الفؤاد وكل ما فيها يشى بحضوره ، تلمع عيناها بفرحة مضيئة ، وتتألق بسعادة غامرة .

أخذ ابنه زهران منه الأشهب وجعل يلاعبه ويهدهده ونثرت ريم وعبلة على أبيها نظرات بر وحب ومودة .

احتوت صفوان مشاعر حارة ، سرت متدفقة فى حناياه .. بين لحمه وعظمه .. وألقت بطرحها الغالى ، زهراً .. ووردا . دخل صفوان إلى أمه قوت القلوب رآها قد أخلدت إلى خلوتها .. وأخرجت فى سكينتها عصارة قلبها .. انسكب يسرى فى عينيها وهى ترتل التسبيح والتهليل على مسبحتها . انحنى إليها وقبل يدها وقال بصوت خافت :

– دعواتك دائماً لنا يا أماه .

التفتت العينان إليه .. وعانقت النظرات ملامحه ، مدت إليه يداً حانية ومسحت بها على رأسه وقالت وهى مازالت في خشوعها :

– سدد الله خطاك يا ولدى العزيز .

[٦]

جلس صفوان تحت شجرة جميز تخزن فى جذورها وساقها وفروعها عصارة الزمان البعيد ، وبجانبه ربض همام شامخاً فى عرينه ، بينما اتكأ عبد الرشيد على عصاه مستوحياً حكم الزمان وأقداره . والتف من حولهم رفاق القرية من الشيوخ والرجال والشباب . هبت نسمات ندية لفحت الوجوه ، فتألقت صفاء ، جرت على وجه صفوان ابتسامة عذبة وهو يطالع مشهد الرجال من حوله ثم قال :

- تجود علينا الأرض دائماً بالخير الوفير " فهذا قمح مثل حبات الذهب.. وبعد ذلك تأتي حقولنا بيضاء بقطن بلادنا إنها محاصيل لاتحصى ولا تعد.

عقب عبد الرشيد وهو يفصل حروف الكلمات ويشير بيده إلى الأرض وإلى من يجلسون من حوله :

- وهذه هي قريتنا وهؤلاء هم أهلنا .

تدخل همام وهو يصوب نظراته إلى الجمع الحاشد :

- ولكن ما حدث قد عكر صفو نفوسنا.

بادره صفوان قائلاً :

- بالضبط .. فهذا هو الذى دعاني إلى دعوتكم بالحضور .. لمناقشة هذا الأمر...

وأضاف عبد الرشيد :

- حتى نحافظ على ما نحن فيه من خير ورخاء وقوة وعزم وثبات .

تدخل شاب يمور قلبه بالثورة .

- وكيف يتم ذلك ؟

أجاب صفوان فى التو :

- نطارد العصبة التى جاءت إلينا من بلادهم البعيدة .. سكان بلاد المياه المالحة وزفر بحرارة واسترسل يقول :

- الذين استطاعوا فى غفلة من الجميع مداهمة القرى والنجوع والكفور النائية بالمكر والخديعة والدسيسة .

فتدخل همام منفعلاً :

- هذه هى صفاتهم التى لا تفارقهم أبداً.

أوضح عبد الرشيد :

- هم وأجدادهم هكذا من أزمان بعيدة بنفس الصفات وجرت بينهم وبين أجدادنا معارك شديدة احمر لها سواد الليل .. وجرت تحت سنابك الخيول بحار من الدم .

انتصب همام واقفاً وزعق :

- لهذا يجب أن نولى هذا الموضوع كل اهتمامنا .

انتفض علوان وزيدان واقفين وكأن الأرض قد زلزلت من تحت أقدامهما وراحا يصيحان بكل قوة :

- ونحن لها .. نحن لها .

وبادر الليثى القوم .. وجعل يفيض بالحديث عن سكان بلاد المياه المالحة وكلما أظهر خداعهم .. وشرهم .. ومكرهم ، كلما هاجمت الثورة فى صدور الشباب .. وتجلت الحكمة فى عقول الشيوخ عطاء . وطال الحديث .. واستدار واستطال وأخرج كل واحد ما عنده .. ثم انفض الجمع الحاشد . وذهب كل واحد منهم إلى مبتغاه .

غادر مصباح الجمع ، أخذته خطاه إلى أغنامه إلى الأرض البكر ، إلى براح الكون عند الغدران والعشب . أخذه غرام الوجد إلى نايه بعد أن أثلج مشهد اليوم صدره ، هزته مروءة الرجال ، وحماس الشباب ، وحكمة الشيوخ ، ولج كل ما رآه إلى أعماقه . اندفعت يده إلى داخل جيبه وأخرجت مزمارة ، قصبة البوص المرصعة بوهج النغم . لامست القصبة شفتيه ، تحركت الأصابع مرتجفة على الثقوب ، خرج النغم ، أنساب عذباً رخيماً ، انداح فى الكون ، سرى فى كيان الطبيعة ، لاحق الطيور فى حنايا أوكارها استكان كل شئ إلى اللحن الآسر .

غرق مصباح فى الأنغام حتى أذنيه ، فصار كل ما فيه يتمثل لبوصة الغاب التى بين شفتيه .. تألقت عيناه بوهج الطيف الغائب .. جاءه

الطيف حقيقة .. جاءت البدوية الحسناء وهى أكثر بهاء .. وأروع جمالاً تختال الخطى ، وتنطق عيناها بذاك العشق المسبوك بسعير الوجد.. اتسعت مقلتاها .. وانتصبت أهدابها ثم قالت :

- والتقينا ثانية يا مصباح .

ياسبحان الله .. يا قادراً على كل شيء.. يا عليمًا بسرائر القلوب .. كان قلبى يهفو لرؤياها ويجزم بأننى سأراها الآن فى هذه الأرض البراح.. لهذا عزفت لها هذا النغم .. وأنا أترقب حضورها .. وأقول إنها قادمة . فغر مصباح فاه واستوت ذراعاه إلى جنبيه .. وتدلى المزمار من بين أصابعه .

حدقت البدوية الحسناء فيه طويلاً ثم تساءلت فى دهشة :

- لماذا سكت ؟ لماذا لا تتكلم ؟ لقد جئت على هذا اللحن .. نادتنى هذه الأنغام من أرض العشب .. سمعتها تسرى فى الأنحاء كلها .

وفى صمت وخشوع .. فرش مصباح فرو كبش .. تحت شجرة وارفة الظل ثم دعاها إلى الجلوس . جلست البدوية الحسناء .. تأمل مصباح وجهها الباهر فرأى فيه أساطير الحكايات المجيدة . سافر مصباح إلى عالم غير العالم فأمسك بالناى .. وأسبل عينيه وراح يداعب ثقوب الناى الأسطورى. انساب النغم أروع مما كان .. أخرج أسرار ما فيه .. سرى اللحن بين الماء والعشب .. حول الشجر والزهر .. هام فى آفاق اللامنتهى : « أيها العاشق الهائم هذا هو قلبى .. يخرج جمر ما فيه .. يلون الأشياء بلون السرائر .. فتسرى آهاتى وأشجانى بين الأرض والسماء .. فيمتلئ قلبى عشقاً ووجداً . آه يابدويتى الحسناء يا ابنة الأرض البراح .. ذاك قلب فلاح ندى القلب فلاح الأرض والطين والماء والعشب .. ابن سلالة الأمجاد الغابرين .. وهذه قريتى .. تشيع عطراً

وتمتلئ دفئاً .. فيها سر أسرارها .. وحكاية حكاياتها» .

ويتدفق اللحن عذباً .. فياضاً والبدوية الوحشية النظرات .. ترهف السمع إلى ذاك المزمار البوصى .. وهو يخرج تلك الأنغام الآسرة . تلاحقت الأنغام ، وسرت فى المكان كله غردت معها طيور خضراء فى لون بساط الأرض أو بيضاء فى لون ندوف القطن .. وزرقاء فى لون سماء الكون . وراحت الأغنام تثغو .. وتثغو .. وتدعو النعاج كباشها للحضور .. وتألقت عيون البقر جعلت تخور وتخور وتنادى بعضها البعض . وما أن علا صهيل الخيول حتى انتصب مصباح واقفاً .. والبدوية الحسناء قد فعلت مثل ما فعل. بعث مصباح هذه المرة الأنغام قوية .. جامحة .. متوهجة متوقدة . تألق وجه البدوية نضارة وبهاء فتساءلت والفرحة تشرق من عينيها .

- هل هذا صهيل خيول قريتكم يا مصباح ..؟

- أجل .. إنه صهيل خيول قريتنا .. يا ابنة الأرض البراح .

بادرته بصوت قوى جلى :

-أعلم ماتعلم .. يا مصباح .

تطلع مصباح إليها .. فرأى بياض عينيها قد صار كنصل السيف اللامع .. وأهدابها قد استوت وبدت كالسهام الصلبة. أغمض مصباح عينيه مأسوراً بما يرى وما أن عاود إليها البصر حتى وجدها قد توارت فوضع المزمار فى جيب جلبابه وطفق ينادى عليها بأعلى صوته ... ويبحث عنها فى كل مكان فلم يعثر لها على أى أثر .

***

انطلق مصباح إلى قريته . وهناك على مشارفها سمع صوت ابنته الجميلة الرشيقة الرهيفة خضراء العين ، جرى إليها وجرت إليه وما أن

أتيـا إلى بعـضـهـا البـعض حـتى أخـذها بين يديه وراح يتـأمل إشـراقـات وجـهها .. والدموع فى عينيـه . جففت خضـراء العين عينى أبيـهـا ثم قالت باسمة الثغر .

– أين مزمارك يا أبى .. ؟

ودست يدها فى جيبـه ، وأخـرجت النـاى ، ووضعتـه على فـمـهـا العذب، ونفخت فيه . وترقرق الصوت بين شفتيهـا ، ضحك مصـباح ، وأخذ الناى من بين شفتى ابنته برقة ثم قال وهو يداعبها ويهدهدها :

– هذا النغم إليك يا ابنتى .

أنشأ مصباح ينفخ فى مزماره فيخرج النغم فرحاً .. طروباً .. اختالت ابنته عليه الخطو فزاد منه .. رقصت الابنة على أنغامه .. وأتت الصغيرات اللاتى فى عـمرها ورحن يرقصن طرباً .. وصـارت الأرض معزوفة حب محب . وجاء الأصـهب يتـمـايل على أنغـام مـزمـاره نـزل همـام من على حصانه، وقد اتسع وجهه سروراً . قال وهو يربت على كتف مصباح :

– أحسنت يا أخي . أحسنت يا أخي مصباح .

تطلع مصباح إلى همـام .. إلى تلك الهامة الشـامخة السـامقة ، فرح بذاك الوجه القـوى . « يا رجل الرجـال .. إننى أرى فـيك سـر وعـزم وثبات قريتى .. أرى فيك شموخها وكبرياءها وعزها وفخرها .. إنك تذكرنى بجذور ماضينا ووجه حاضرنا ومستقبلنا » ركب همام حصانه، وكانت الشمس قد نزلت من على عرشها الباهر وآبت إلى مخدعها .

« الشمس قد رحلت يا مصباح والقمر سيعود .. والشمس والقمر لا يتسابقان .. ولا يتنافران، كل فى دائرته يدور يا مصبـاح .. وقريتك الآن فى خـشوع .. الليل يفرد عليـهـا بردته والمئـذنه تدعـو أبرارها الى مسجدها الرحيب » .

[٧]

راح الحصان الأشهب يصهل مدوياً كقصف الريح العاتية ، ويرفع قائمتيه إلى أعلى وينزل بهما إلى أسفل فتهتز الأرض من تحت حوافره ، ويتناثر الغبار من حوله . اندفع صفوان إلى حصانه وأمسك بوثاقه ، جعل يربت على عنقه ويداعب خصلات شعره ، اهتز الحصان وتمايل في نشوة . وما هي إلا لحظات حتى انسابت من بين ضلوع الكون أنغام مصباح ، هدأ الحصان واستكان وصار كنسمة من فيض الربيع . تدفقت الأنغام رخيمة عذبة ، انتشى الحصان وجعل ينقر على الأرض بحوافره ، ضحك صفوان وجاء الى حصانه وقبل غرة رأسه وعلى مرمى البصر انتصبت هامات الفلاحين وهم يحملون أجولة محاصيل الشتاء ، وخرج الخضرى من حقله بوجه محروق بقيظ الشمس وقال في سعادة غامرة وهو يغازل الأشهب :

- الكل سعيد بما نحن فيه .

وأضاف الليثى :

- الأرض غمرتنا بالقمح والشعير والفول وهى محاصيل تكفى أهل قريتنا .. وأهل القرى والكفور والنجوع المجاورة .

وفرك عبد الرشيد يديه وقال وهو يتطلع إلى الماشية المتناثرة من حوله .

- وفاضت علينا ضروع الماشية باللبن والزبد والجبن .. والسمن .. إنه خير وفير في أيدينا .

هبت نسمات الربيع ندية .. واعتلت أغنيات صبابات الحقل الحسان أجواز الفضاء ، وترامت في الأنحاء كلها ، وتهادت شقشقة العصافير من أعشاشها وهى تراسل بعضها البعض غرام الوصال . هبت

ينابيع الكون في عيني صفوان ، ودفعت بحكايات الحب من صدره وقد توشت بجواهرها ولؤلؤها وزبرجدها . « يا حي يا قيوم .. يا خالق الكون كله .. يا رب العالمين .. خيرك يفيض علينا .. ورحمتك تشيع في قلوبنا السكينة والطمأنينة » . ومست صفوان إشراقات صوفية : فقام إلى حصانه وامتطاه ، وفارق رفاقه . أخذته أسرار السر المسكون في أعماقه .. ودعته لأن يجوب الزمان والمكان .. لقد سبر النداء القادم الزاعق أعماقه .. أخرج ذاته من أغوار السنين .. وبسطها أمامه على الأرض وكل ذلك يحدث وأنغام مصباح تصدح في المرامي كلها ، وتنداح في كل مكان في الأرض والسماء ، بين ثنايا الشجر ، ومع السواقي وهي تدور خلف أبقارها ، وبين حنايا الشطآن ، ومع خرير الماء وهو ينساب برفق في الغدران .

شدت صفوان صحوة الأرض وإشراقات السماء ، وتراتيل الوجود .

" يا صفوان ها هي قريتك .. وهؤلاء هم أهلها من الفتيان والشباب والرجال الذين يحرسون حدودها وأبوابها .. وهؤلاء هم شيوخها الذين يؤرخون حكاياتها .... وأحداثها .. وزمانها ومكانها .. وآمالها .. وأحلامها .. وأحزانها .. وأفراحها في الدور .. والشوارع .. والحواري والحنايا .. والساحات .. في رحاب مسجدها وتحت مئذنتها .. وحول أشجارها ونخيلها وعلى بساط حقولها .. وشطآنها .. وغدرانها وسواقيها .. وأنت يا عزيزي مصباح .. يا ابن الأرض والعشب والطين .. يا من صنعت من بوص الشطآن .. ذاك المزمار الأسطوري .. الذي يأسر لب وعقل وقلب كل من يسمعك .. صهل الحصان وجعل يضرب الأرض بحوافره ويجتاز الزروع والدروب والشطآن والجسور .

" صوتك الآتي إليَّ يا مصباح .. يثير الآمال التي يموج بها صدري ..

يزهر الحلم المنسكب فى أعماقى .. كل لحن منك يا مصباح يسرى فى دمى بين ضلوعى .. ولحمى وعظمى ". طفق صفوان يرتاد الأنحاء والمرامى وكلما سار .. كلما تألق اللحن فى أذنيه وأخيراً هنالك بين طريق يشق صدر الأرض ويتلفع بخضرة يانعة ، ويزهو بزهر زاهر تأتى أنغام مصباح قوية متدفقة .. وإذا ما سكن وهدأ مصباح من وقدة شجونه .. سمع لحناً آخر .. تشدو به يمامة رقيقة رهيفة .. وقيثارة هدهد يتجلى سحراً بصوته المعتق بخمر السنين . الكون يعشق نفسه .. وكل ما فيه يسجد للخالق .. البارئ المصور .. رب العالمين .

أنت يا مصباح تذكرنى بحكايات أبيك إنه كان مثلك يعشق اللحن الأسير . لقد صنع هو أيضاً من بوص الشاطئ ناياً مثل هذا المزمار .. وكان يترنم به للأرض والناس والحياة وكان أبوك يحكى لنا حكايات الأجداد .. يحدثنا بألحانه عن زمانهم ومكانهم وحكاياتهم . كان مشحوناً بالحب والوجد والعذاب . كان يغنى للماضى والحاضر والمستقبل ويعشق ما يقول ويفيض به شدواً .. ووجداً . وهو على شاطئ النهر أو فى حضن الحقول أو تحت ظلال النخيل . أو بين جدران البيوت المفتوحة أو المغلقة .. كانت أحاديثة وأنغامه لا تنتهى من فمه العذب الرقيق وإذا ما طلع القمر .. وانداح نوره .. امتلأ قلبه نوراً .. وحباً .. وعشقاً وأيضاً عذاباً وشجناً ووجداً .. وكنا كلنا فى القرية .. الشيوخ والرجال ، والشباب .. والنساء والأطفال نجلس من حوله .. ونرهف السمع إلى ما يشدو به .. وهو غارق فى الدموع . والآن ها أنت يا مصباح يا ابن الأرض والعشب والطين ... يا ابن الزهر والورد .. تعيد إلينا .. أيام أبيك .

وهنالك كان يجلس مصباح .. تحت ظل شجرة وارفة الظل ، وأمامه

يتألق غدير الماء ، وفى الأرض البراح ترعى قطعان الأغنام . ومصباح فى ذلك .. تتسمر عيناه ببدوية حسناء ، ويداه تنبسطان على مزماره واللحن الآسر يتنفسه عشقاً . ظل مصباح غارقاً فيما هو فيه ، ولم يشعر بحضور صفوان ، كان مصباح مسافراً فى رحلة النغم ، هائماً فى تيه الألحان ، وأمامه هدهد رائع جميل ينتصب واقفاً .. وقد ضم جناحيه فى كبرياء ويمامة رهيفة وديعة قد لملمت كل ما فيها واستكانت فى حضن أوراق شجرة ندية شذية .... ربط صفوان حصانه بعيداً عن مصباح ، وما أن شد صفوان وثاق الأشهب حتى وقف الأشهب فى صمت وسكون ، سحب صفوان نفسه إلى الخلف ، وجلس يشنف أذنيه بالنغم الآسر .

تدفق النغم سارياً فى المرامى كلها ، وسافر صفوان مع تلك الأنغام المنصهرة وركب بها مطايا الحلم المتوهج ، شد صفوان رحال تفكيره إلى الزمان والمكان الرابض فى التيه. اشتعل ما فى الحنايا ببواكير السنين العذاب . كل ما فى نفس صفوان قد صار كوناً رحيباً لا حدود للزمان والمكان فيه... وبعد أن أخذ صفوان من ذلك الزاد جرعة الزاد الذى فاض قام من مكانه فى هدوء ومثلما بدأ .. أخذ حصانه الأشهب وركبه وقاده برفق .. إلى رحابة الأرض . وكانت الشمس قد جمعت أثوابها وهمت بالرحيل ، والناس فى الحقول قد جمعوا حصاد شتائهم الوفير من قمح وفول وشعير ، وساروا به خلف دوابهم والسعادة تشرق فى وجوههم . والصبايا الحسان من خلفهم ينشرن أغنيات حلوة عذبة .. وغلمان تتألق فى عيونهم الفرحة ينادون مصباح القابع فى المتاهات .

دخل صفوان داره ، استقبلته زوجه وأمه وأولاده . جرى إليه زهران وأخذ الحصان من أبيه وسار به إلى حظيرته ووقفت البنتان تقبلان يد

أبيهما .. وأبوهما باليد الأخرى يمسح على رأس كل واحدة منهما ، ثم تأتى أمه إليه ويأتى هو إليها ويقبل يدها وتقبل هى رأسه . أما زوجه روح الفؤاد فقد وقفت بجواره تتألق جمالاً وصبوة ونضارة .

جلس صفوان بينهن هائم العينين مأخوذ القلب .

قالت أمه فى دهشة :

- ماذا بك يا ولدى ؟:

حدق فيها طويلاً ولاذ بالصمت .

اقتربت منه فى جزع ومدت يدها إلى رأسه وقالت فى لهفة :

- أمريض أنت ؟

رد صفوان فى صوت مأسور :

- لا شيء .. لا شيء .. الحمد لله .

أطلق صفوان نظراته إلى ابنتيه ريم وعبلة .. رآهما قد صارتا جميلتين رائعتين تفيض حرارة السنين الفوارة من بين ثوبيهما ، أخذته هزة وخوف وخشية . سمع خاله هماماً يجلجل بصوته الجهورى وفى صحبته الليثى، دخل همام الدار شامخاً سامقاً فى ثوب فضفاض ممسكاً بعصاه المنمقة المشذبة ويقول فى جدية بدت واضحة من نبرات صوته :

- اتركينا يا قوت .. وأنت يا روح الفؤاد مع زوجك همام .

التفت إليه صفوان باهتمام بالغ ، عاد همام يقول بأكثر جدية :

- ازدادت العصبة شرا .. وفسادا .. وقوة وضراوة .

قاطعة صفوان فى دهشة :

- ما الذى حدث ؟:

- تمكنوا من غلبة بعض النجوع والكفور المجاورة وطردوا أهلها من مساكنهم بالقوة .

هب صفوان واقفاً والشرر يتطاير من عينيه :

- وهل استكانوا ؟

- قاوموهم بكل ما لديهم ولكنهم كانوا الأقوى .

تدخل الليثى موضحاً :

- جاءت العصبة من خلف المياه الملحة بمراكبهم القوية والكثيرة .. واستطاعوا بالخديعة والدسيسة أن يحققوا بعض مكاسبهم .

تساءل صفوان :

- وماذا يملكون ؟

رد همام وأمارات الغضب تموج فى وجهه :

- يملكون كل شىء .

فكر صفوان ملياً ثم مضى يقول :

- لابد من إخراج العدة لمواجهتهم .

رد همام بحسم :

- هذا ما جئنا إليه لنتدبر أمره .

وجاء عبد الرشيد وزيدان وعلوان والخضرى .. تجيش فى صدورهم انفعالات حادة . قال علوان فى غضب :

- لقد تجاوز هؤلاء كل الحدود والأعراف .

وأضاف زيدان :

- وراحوا يفعلون كل ما يبدو لهم .

تدخل عبد الرشيد :

- إنهم على جانب كبير من المكر والخبث والدهاء والمراوغة والمداهنة .. هذا بالإضافة إلى ما يملكونه من وسائل القوة .

قاطعة همام :

- سنقاومهم مهما كانوا .. وأينما كانوا .

وضح عبد الرشيد :

- أحب أن أقول أن هدفهم الأول هو زرع الخوف فى قلوب أهل قريتنا والقرى المجاورة .

عقب صفوان :

- أنا أعلم كل شيء عنهم .. وتصلنى أخبارهم تباعاً .. ولهذا أعددنا لهم كل شيء .

بادره همام :

- أصبحت المواجهة الآن أمراً ضرورياً .

رد صفوان :

- بالضبط ، ما تقوله يا خالى همام هو الصواب بعينه .

هب عبد الرشيد واقفاً وصفق بيديه وقال فرحاً :

- هذا ما ننشده فيك دائماً يا سيدصفوان .

وانصرف الجميع ونفوسهم تمتلئ بالقوة والعزم واليقين .

[٨]

صحت القريةعلى صهيل حصان جامح ، فخرج شيوخها ورجالها وفتيانها من دورهم يحملون مصابيحهم ، رأوا حصان زيدان يدور فى أنحائها ويضرب الأرض بحوافره وصاحبه قد انكفأ على ظهره وقبض بيديه على وثاقه . جروا إليه فى فزع .. وجدوا الرجل مثخناً بالجراح والدم ينزف منه بغزاره . امتدت يدا همام القويتان إليه وسحبته من فوق ظهر حصانه ، تناثرت الأسئلة من حوله فلم يجب بأى شيء وكل ما استطاع أن يفعله أن حرك زيدان جفنيه بصعوبة بالغة ثم عاد بهما

إلى ما كانا عليه فحملوه إلى منزله وقد جاءت زوجه وبناته الثلاث ورحن يصرخن ويولولن بحرقة شديدة . تجمعت النسوة حولهن ، والتفت عبد الرشيد ومجموعة من الشيوخ حول زيدان وأخذوا يضمدون جراحة الغائرة وهو فى غيبوبة عميقة .

جرى همام وعلوان والليثى إلى خيولهم وامتطوها ، واندفعوا بها إلى خارج القرية صهلت الخيول الثلاثة وهى تشق عباب الطريق وأخذت تضرب بحوافرها العاصفة المسالك والدروب . لم تتوقف الخيول إلا على صوت صهيل حصان يأتيها من على قرب ، وقف الرجال الثلاثة بخيولهم هنيهة ، جاء الصهيل ثانية أكثر وضوحاً . قال همام :

- هذا هو صهيل حصان من خيول قريتنا .

اندفعوا إلى مصدر الصوت ، وصلوا إليه فوجدوا شاباً من قريتهم يجالد جراحه ، داروا من حوله وسألوه عما حدث . قال الشاب بكلمات متوجعة متقطعة :

- هل وصل زيدان إلى قريتنا .. ؟

ردوا بالإيجاب .. تمتم الشاب بشفتين مرتجفتين :

- الحمد لله .. الحمد لله .

وبعدها انكفأ على ظهر حصانه وسالت دماؤه على جسم حصانه الأبيض . انتاب الرجال الفزع من جديد فداروا من حوله وكرروا عليه القول .. فلم يجب الشاب بأى كلمة . أخذه علوان من على حصانه ووضعه أمامه وسار الليثى فى ركابه .

ترك همام رفيقيه والجريح .. وقرر أن يتحرى حقيقة ما حدث . انطلق بحصانه الأصهب .. يدق الطريق بحوافره .. ويوقظ الليل من سباته .. ويساهر النجوم فى عليائها . وأمسى صهيله يمتزج بضربات

حوافره العاصفة، وبكائنات الليل المسربلة فى قاع دهاليزها . أمسى الليل ساجياً فى ظلمته . . وحدثه الكون عن مجهوله وأسراره " ما الذى أصاب زيدان . . زين رجال قريتنا . . أى مصيبة حلت بنا . . يا قرة عينى على بناتك الثلاث يا زيدان . . إنهم زهرات قريتنا اليانعات . . أتذبل الزهرات الثلاث من بعدك يا زيدان ؟ أيموت الغناء على شفاههن ؟ . .

لهفى عليكن يا بناتى العزيزات العفيفات الطاهرات " . ويشد همام وثاق حصانه ، ويصهل الحصان ، ويدوى صهيلة فى الآفاق . أمضى همام الليل بصولاته وجولاته إلى أن هبت أنفاس الفجر تبث صحوتها فى حنايا الكون ، وتغزل فى مشرق الأفق غرة اليوم الآتى . وكان الأصهب قد أنهكته مسالك الدروب ، وهمام قد ألبسه الليل مسوح جولاته وصولاته فقفل عائداً إلى قريته .

***

لبس الصباح أثواب الشمس ، غير أن النهار قد غشيه حزن ثقيل ، جرده من فرحة البهاء ، وشقشقة العصافير ، وقيثارة هفيف الشجر ، وهبات أسراب الطيور البيضاء فى رحاب الأفق الفيروزى . رأى همام القرية وقد غمرها ذاك المجهول الذى حل عليها ، فعصر قلوب رجالها ، وفتت أكباد نسائها ، والقرية كلها تبوح بحزن عارم ثقيل .

مات زيدان . . مات زيدان زينة رجال قريتنا يا همام . كلمات موجعة سمعها همام وعيناه تغرقان فى الدموع . توقف همام بحصانه . . نكس الحصان رأسه الى الأرض . . وغارت عيناه شاردتين .

نزل همام من على حصانه . . وكلمات مصباح تثقب أذنيه . لقد صار الموت حقيقة نزل كالسيف القاطع . . عندما سمع صراخات النسوة . . وولولة بنات زيدان الثلاثة مع أمهن وهن فى ملابسهن

السوداء .. ووجوههن قد لبسن خسوف القمر . ودار زيدان تحتشد بالنسوة والصبيات والفتيات بينما صفوان قد وقف يخيم عليه حزن ثقيل ومن حوله عبد الرشيد والخضرى والليثى وعلوان وجمع غفير من أهل القرية .. وما أن ظهر همام يلوح الحزن الشفيف على كل ملامحه حتى قاسم الموقف كل الحاضرين . قال همام وهو يغالب دموعه :

- قتل زيدان غدراً .. يا صفوان .

رد صفوان بكلمات موجعة :

- وأى ثأر سيكون بعد ذلك ؟

بادره همام وقد اجه الموقف :

- الثأر .. الثأر .. الثأر .. يا رجال قريتنا الشرفاء .

رفع عبد الرشيد يديه إلى السماء متضرعاً :

- اللهم ألهمنا الصبر يارب .. اللهم انصرنا عليهم يا قوى يا عزيز .

وعلا الصراخ والنحيب .. عندما خرج الجسد المسجى من بيته ليكون الخروج الأخير .. ليفارق الأهل والأحباب والرفاق ليخرج من زمان الدنيا إلى أبدية المنتهى

- سبحان الله .. يا حى يا قيوم .. يا رحمن يا رحيم يا ملك يا قدوس .. جل جلالك وتقدست أسماؤك .

راح عبد الرشيد يردد هذه الكلمات الوضيئة بصوت خاشع فى ذاك المشهد المهيب .

اهتزت القرية بكل من فيها وهى تودع بطلاً كريماً .. شهماً شجاعاً .. إلى مثواه الأخير . أمسكوا بالجسد المسجى المكفن فى البياض ووضعوه فى التراب .. وتوارى الجسد .. اعترت صفوان هزة ورجفة .. حدث نفسه آسياً " أخذوا واحداً من رجالك الأفذاذ يا صفوان .. استباح

دمه هؤلاء الأشرار. لن تهنأ نفسك بالعيش بعد ذلك يا صفوان فالثأر الثأر يا صفوان ".

نزلت جموع الناس من جبانة القرية والخريف يمسح عن الطبيعة بهاء النور .. ويسلب منها ثوبها الزاهر . " القرية يا صفوان تحتاج إلى من يضمد جراحها .. إلى من يعيد إليها بشاشتها إلى من يلبسها أثواب فرحتها .. ولكن ذلك لن يأتى إلا بالثأر يا صفوان " ركب صفوان مطية أفكاره .. فحاورته وناظرته .. بثت له لواعج مصابها .. وسهام نوازلها.. وتلاطم فى مخيلته ذاك الموج الكاسر الغاضب .. رددت ريح الثأر فى أذنية وتصاعد غبار الخيول وضربات الحوافر العاصفة . وانفض العزاء وانصرف الناس إلى دورهم .

ذهب صفوان إلى بيته ، وجلس بين أمه وزوجه ، حضنهم بنظراته ، أخرج من أعماقه مكنون روحه. حامت روحه حولهن ، وبسطت عليهن عروس الحب والخوف ، قلب فيهن ناظريه من جديد ، فغلبته الدموع، وسالت على خديه كجمرات النار . اندفعت إليه أمه ومسحت بيدها الحانية على جبهته ، صارت يدها على وجهه بلسماً يضمد جراحه . بكت ابنتاه ريم وعبلة ، يتلثم وجهاهما بالحزن. قال صفوان وهو ينزع الكلمات من أعماقه :

- والله لأنتقمن من القاتل الغادر انتقاماً لا يعرفه أحد من قبل ولا من بعد.

وعادت شوارد الفكر تحوم من جديد على رأس صفوان.. فأتته زوج زيدان طيفاً مسربلاً فى الأحزان.. تئن وتبكى.. ومن حولها بناتها الثلاث. انتفض قلبه بين ضلوعه فراح من جديد.. يحضن زوجه وأمه وابنتيه بنظرات ممتلئة بالأسى.. ولما اشتد عليه الشجن ترك داره وخرج.

وكانت القرية مازالت تكفكف دموعها ، وتضمد جراحها وأوجاعها ، ارتاد صفوان شوارع القرية وحواريها ، والليل ينشر عليها بردته ، والظلمة تسكن حناياها وكل من فيها يئن حزناً لمصابه . ترك صفوان قريته وخرج إلى البراح ، فرأى الأشياء تتسربل فى أسرارها ، والوجود كلة خاشع فى سكون الليل والكون يخرج من توابيته قصة الأزل ، وطائر السماء يهيم فى الربوع المترامية .. ويراسل السماء بأنشودة الليل " سبحانك يا ربى .. يا عليماً بأسرار القلوب. الكل فى هدأة الليل يبوح بسر ما فيه.. ويتطلع صفوان إلى التخوم السوداء .. إلى تلك القبور التى لبست أثوابها .. فيغوص قلبه فى أعماقه .. ويخفق خفقات آسية " هنالك فى تلك الربوة العالية .. وسدوا جسدك فى التراب يا زيدان.. لقد كنت تحدثنى بالأمس بأحاديثك .. وتبوح لى بسر ما فى نفسك .. حدثتنى كثيراً عن بناتك الثلاث .. قلت لى عنهن : لقد صرن عرائس، دماء الشباب تجرى فى عروقهن .. بعد أن أخرج النهر طرحه فى أثوابهن .. وأتمنى أن أزوجهن يا صفوان .. " وينتفض صفوان ... ويعتريه حزن مفعم بالشجن ويصرخ من أعماقه : والله .. سأزوجهن يا زيدان بأفضل الشباب .

ويطول الليل، وتطول الحكايات، وبينما هو غارق فى أفكاره وشوارده يسمع أنات حزن موجعة .. تشق دياجير الظلام فيشد خطاه إلى داخل القرية ، إلى دورها وحواريها ، وأسرارها وحكاياتها ، فيرى المصابيح فيها ترتجف وترتعش ، والنسوة مازلن يضاجعن أحزانهن . وما أن اقترب من الدور حتى سمع نحيباً عالياً ينبعث من بيت الراحل زيدان. جرى إلى هناك ، استقبله مصباح وهو يئن ويبكى ويقول والدموع تملأ عينيه :

- لقد مات حصان زيدان أيضا، لحق بصاحبه يا سيد صفوان .

[٩]

نهض مصباح من نومه على الرؤيا التى رآها ، سرت الرؤيا فى دمه بين لحمه وعظمه ، وأبرقت فى مخيلته بكل ما فيها من دلائل . قام وفرد على منكبيه عباءته التى من صوف أغنامه ، ووضع مزماره الذى من بوص حقله فى جلبابه بجوار قلبه . وخرج والفجر يبث للكون نشيده الآتى ، وحبات الندى تتألق أمامه وتراقصها نسمات مترعة بسكرة الصباح . « مفتون أنت يا مصباح بهذا النزق . بهذا الولع المجنون الذى يدفعك إلى ما تبتغيه » .

ويسرع مصباح خطاه إلى الطريق الذى عقد عليه العزم ليتحرى أمر ما رآه فى رؤياه . ويتبرعم الحلم الذى فى رأسه بعد أن شيدته حكايات الليل بكل ما فيها من أسرار « يا أيها الفارس الشهيد . لقد رأيتك بين الزهر والورود والبساتين فوق بساط أخضر . حصاه من تبر ولؤلؤ وجواهر وتناديك حور عين .. كأنهن اللؤلؤ المنثور. يا روعة ما كنت فيه من نعيم مقيم . " . ويخرج مصباح الناى من حضن جلبابه ، ويضعه بين شفتيه ، وترتفع أصابعه إلى ثقوبه ، فينساب النغم .. حالماً جميلاً رائعاً .. فيه حرارة الوجد ، وصفاء النفس . ويسير مصباح ويسير ولا يدرى على أى أرض يسير . تزهو الأشياء من حول مصباح ، وتتلون بألوانها ، بالأبيض والأحمر والأخضر والأصفر وتمتزج أطياف منارات الشمس مع ألوان الأرض ويصير الكل فى عينيه واحداً . « الكل فى عينيك يا مصباح .. يتوحد .. وينصهر » ويضحك كل ما فى مصباح ويصير فى سعادة وسرور . وعندما وصل مصباح إلى مرماه ، رفع ذيل جلبابه ، وعبر فيضاً من ماء رقراق يلمع حصاه تحت قدميه . " بشراك يا مصباح .. هذا هو أول النعيم .. نعيم ما رأيته. إنه مثله تماماً " .

وتنفرج أساريره بفرحة غامرة ، وما أن يعبر النبع الصافى ، حتى يتسلق جسرا رشيقاً مهذباً .. اعشوشب بساطه بلون أخضر ، وتتألق فى وسطه وحناياه مجموعة من الأزهار البرية الباهرة . صفراء فى لون الزبرجد ، وزرقاء فى لون السماء ، وحمراء فى لون الخدود الأسيلة . وتزداد فرحة مصباح نشوة وسروراً فيخرج من هذا البهاء إلى أرض براح تتزيا جنباتها بباسقات النخيل ، وبشجيرات شذية الريح . يقف مصباح ويطالع ما حوله ، تأتيه طيور فى لون الألوان كلها وتغرد فى أذنيه لم يسمع لعذوبتها نغماً من قبل . وقف مشدواً بما حوله يطالع ما يرى ويحدق فيه النظر ويستغرق فى رؤياه .. ولا يصحو من هذا الهيام إلا على صوت آسر . التفت إلى الصوت القادم فرآها أمام عينيه .. بهية مشرقة .. قال وهو يمد إليها البصر :

- أنت التى ...

- التى جئت لتراها .

- وهل كنت تعلمين .. بأننى .. ؟

- قادم إلى هذا المكان .. فى هذا الصباح ..

سكت مصباح دهشاً .. ولم ينبس بأى كلمة. عادت تقول :

- لا تتعجب كثيراً يا مصباح .. فالبدوية بنت الفطرة تعرف الكثير .. والكثير .

- أنا جئت بعد أن ..

وضحت البدوية :

- بعد أن رأيت رؤيا الشهيد زيدان .

تسمر مصباح بالأرض مبهور الأنفاس .. فاغر الشدقين :

قالت البدوية بكلمات جلية :

- زيدان مات شهيداً عندما دافع عنا .. وعنكم .

- عنا وعنكم ؟!

ردت بكلمات حاسمة:

- أجل رجالنا هم رجالكم .. ورجالكم هم رجالنا .

- ومن الذى قتله ؟

- سكان بلاد المياه المالحة .

ومضت تقول وهى تصوب عليه سهام نظراتها :

- جاءوا وهم أكثر دهاء وخبثاً .

وتنهدت ومضت تقول بمرارة :

- خدعوا الكثيرين بمعسول كلامهم .. المنقوع فى السم الأسود .

تساءل مصباح فى حسرة :

- وزيدان ماذا جنى . ؟

ردت فى ثبات ويقين :

- مات موتة الرجال الشرفاء . عندما هب مدافعاً عن أبنائنا وأبنائك الذين استدرجوا إلى نواياهم وخططهم الشريرة .

والتقطت البدوية الحسناء الوحشية النظرات أنفاسها وعادت تقول :

- انقض عليهم زيدان كالريح العاصفة ومعه شاب من شباب قريتكم وخلصوا أبناءنا وأبناءكم من شرور أيديهم . ولكنهم أتوا إليهما بكل ما ملكوا وصوبوا عليهما كل شرهم وحقدهم .. ما أن سمع مصباح هذا الكلام حتى هوى إلى الأرض .. ورفع رأسه بين يديه واندفع فى بكاء عميق .. وما أن عادت إليه عيناه وعادت عيناه إلى رأسه حتى التفت فلم يعثر لها على أى أثر .

اندفع مصباح يسابق الريح إلى قريته وما أن وصل إليها .. حتى

ملأت مسامعه أصوات ثغاء أغنامها وكباشها ، وخوار بقرها ، وصهيل خيولها ، وصيحات شبابها وهمهمات نسائها . اقترب من الدور أكثر وأكثر . . وكلما اقترب كلما ماجت في صدره ثورة مكتومة وما أن وقف أمام الناس حتى صاح فيهم بأنفاس كجمرات النار :

- يا رجال قريتنا الشرفاء . . لقد قتل سكان بلاد المياه المالحة الشهيد زيدان عندما هب يدافع عن كرامتنا وعزنا وفخارنا .

[١٠]

خرجت خيول القرية وفوق صهوة ظهورها رجالها وفتيانها ، وراح همام يصول ويجول ويصيح مردداً : الثأر الثأر . . الثأر للشهيد زيدان . . يا رجال قريتنا الشرفاء . بينما أخذ صفوان يطالع ذاك المشهد المهيب بفخر وحب وكبرياء ، ويدقق النظر في الخيول وهي تصهل ، وتلتف وتدور وقد تفصد عرقاً ، وتناثرت شعور أعناقها . . بهره ما رآه . . سرت في أعماقه فرحة عارمة ، وكم كان يتمنى أن يكون على رأس هؤلاء الرفاق إلا أنه بقي في القرية ليكون حارساً لها ، ولمسنيهاولعجاذئزها ونسائها وأطفالها . تفجرت في أعماقه نداءات هادرة " رجال قريتك الآن يا صفوان يلتقون في دوائر من نور ونار . تجري على شفاهم أغنيات جميلة وتسري في عروقهم دماء فوارة . . تأخذه إلى الأمل الرابض في أعماقهم ».

صهل حصان صفوان الأشهب ، وراح يضرب الأرض بحوافره العاصفة . تراءت في مخيلة صفوان أشياء وأشياء ، وتبرعمت في حناياه حكايات وحكايات . ولم يصح إلا على زعيق خاله همام وهو يقول :

- أتممنا العدة والعتاد يا ابن شقيقتي العزيزة .

اندفع إليه صفوان بحصانه ووقف بجواره وتأمل خاله المرشق بسيوف المجد .. والموشى برموزه وإشاراته فأذرفت عيناه الدموع ،كابد همام الموقف .. ثم سرعان ما خلص نفسه من طقوسه فخطا إلى الأمام بحصانه وصاح صيحة الخروج العظيم .

اخترق الأصهب عباب الطريق ومن خلفه الرفاق وأبحرت الخيول في الغبار الكثيف وكانت الشمس تلملم أشياءها .. تلتف في بردتها العسجدية وتولج بها إلى وكرها الكوني . والطيور من شدة عصف الضربات العاصفة ، والصهيل الزاعق قد تبعثرت أسرابها .

خرج همام ورفاقه لملاقاة عصبة سكان المياه المالحة ، وتلقينهم الدرس القاسي وقد أقسم همام أن يسقيهم من ملح الشراب . علا صهيل الخيول وفرق ستائر الليل المترامية ، وكسر سكونه . وما أن اخترقت الخيول عباب الطرق واجتازت مسالكه حتى هدأت الخيول . ثم أمرهم همام بالوقوف للحصول على قسط من الراحة .

***

وقفت الخيول . ونزل من على صهوة ظهورها رجالها ، واتخذ كل واحد منهم موضع راحته . واتخذ همام نخلة باسقة الطول ، نزل من على حصانه ، وجلس بجوار ساقها . رنا بعيداً إلى ظلمة الليل الساجية ، ثم تطلع إلى حبات النجوم المتألقة . حاورته النجوم بأضوائها المشوبة ببريق الوهج . أخذته الأفكار والذكريات ،تتابعت في رأسه قصته فصحا الماضي الحبيب من هدأته ، خرج من شرنقة السنين الطوال ، لبس أيامه ولياليه ، توهجت غرته الفضفاضة . تألقت منابع الحب المشتعل بين حناياه فهاجت روحه السارية في نفسه . " كم كنت أحب أن ألجم هذا السر في سراديب أعماقي إلا أنه مازال يربض ويرغمني بالبوح كلما

خلوت بنفسي " واضطجع على ساق النخلة الباسقة وتطلع إلى نجم ساطع، فجاءته التي كان يحتويها في جوانحه بين دمه ولحمه وعظمه .

صحت من رقدتها القابعة في صمت القبور ، صحت ذكراها التي لا تنسى حلوة عذبة ، جميلة رقيقة موشاة بكل الأزاهير والورود . إنها التي أحبها الحب كله ، الحب الذي لا يباريه فيه أحد . جاءت من بوابات الزمن القديم ، كهالة من نور علوى دعته إليها وأخذته . " آه يا أميرتي .. يا مليكتي يا هذا كله " .

تقاطرت من عينيه الدموع، واعتصر قلبه ذاك الماضي المؤرق بعذاب الفراق .

" لقد رحلت وهي في بهاء العمر .. ونضارة السنين .. ماتت تلك المرأة الصبية الشذية .. الرقيقة الرهيفة وهي تردد أسمك يا همام عندما اشتد عليها داء المرض ولما أتيتها .. صحا كل ما فيها .. فضحك وجهها . وتألقت عيناها .. وانطلقت منها نظرات عذبة مضيئة ساحرة آسرة ثم انطفأت العينان .. وبقى ذاك الثغر الباسم الضاحك .. وحملوها .. وكفنوها ثم واروا جسدها الطاهر في التراب .. ماتت زوجك يا همام . وهي في هذه الهالة النورانية وتركت لك طفلة بهية رقيقة مثلها تماماً أسميتها روح الفؤاد .. " وتنهد همام تنهيدة .. وراح يعانق النجوم بنظراته ويحدث نفسه " ولم تستطع العيش في القرية من بعد ذلك يا همام .. فأخذت تجوب البلاد . وترتاد الأنحاء سنين طويلة ث عدت يا همام إلى قريتك بعد أن صارت ذكراها مجداً مجيداً . "

لم يصح همام من تيه أفكاره إلا على أنغام رقيقة عذبة .. بعثت في روحه شعوراً دفاقاً بالحياة ، وسكبت في حناياه خمراً معتقاً بسحر السنين . وصغت الخيول ورجالها إلى ذاك النغم السارى في الكون

الرحيب . قام همام وراح يبحث عن مصباح، شده إليه حنين عظيم ، وما أن وصل إليه حتى رآه غارقاً فى أنغامه وأشجانه .

وعندما وقف انتبه إليه مصباح ، سكتت أنغامه ونزلت أصابعه من على ثقوب مزماره بصعوبة بالغة. بادره همام قائلاً :

- لا تتوقف .. متعنا بمزمارك يا مصباح .

رد مصباح بصوت خافت :

- هرب اللحن منى .

سكت همام حزيناً ثم عاد يقول بصوت مشروخ :

- أفسدت عليك ما كنت فيه .

صمت مصباح برهة زاغت فيها عيناه وجرت نظراته بعيداً .. هنا وهناك . ثم أمسك بالناى ووضعه بين شفتيه .. وتحركت على ثقوبه أصابعه فخرج النغم هذه المرة .. صبياً عفياً قوياً . شامخاً .. صهلت على إثره الخيول .. وضربت بحوافرها الأرض ، وانتصب الرجال واقفين ، ثم جرى علوان إلى همام وقال فى قوة وحسم :

- حان وقت المسير .

رد همام وهو يسدد نظراته إلى الجميع :

- أجل لقد حان وقت المسير .

***

دمدمت الخيول .. وصهلت صهيلاً عالياً وضربت بحوافرها العاصفة الأرض . وتكلم الليل الساجى فى خلوته . وهمام يقود الرفاق إلى ساحة الثأر . وما أن أتوا إلى الأرض البراح حتى راح همام يقسم الرجال وينظم الصفوف ويوزع المهام . ويلقى إليهم بتعليماته. بينما وقف علوان على يمينه والليثى على يساره .

بدت من على بعد مسالك ودروب ساحة خيول سكان البلاد المالحة وقد احتشدوا بعتادهم وعدتهم فى ظلمة الليل الحالكة . استحضر همام صورة قريته . بشيوخها ومسنيها ونسائها وأطفالها .. وبيوتها وحواريها وشوارعها وزروعها وبساتينها وشطآنها ومياهها وسواقيها .. بماضيها وحاضرها ومستقبلها وحدق فى وجه السماء طويلاً وبسمل وكبر وتوكل على القوى العزيز ثم اندفع هو ورفاقه كالريح العاصفة يخترقون مواقع رجال بلاد المياه المالحة فى قوة وعزم وثبات ويقين .

[١١]

فاض النعيم على وجه الخضرى وهو يطالع حقول القمح المتألقة تحت سبائك شمس الشروق . أحنى رأسه ، لامس بكفه الصلبة سنابل الحقل فوخزته السنابل وخزاً جميلاً حميماً ، عاود اللمس عاودته الوخزات الجميلة من جديد ، غردت على وجهه ابتسامة حلوة عذبة . نصب هامته داعبت وجهه هبات النسيم الندية . فتح ذراعيه ، تمنى أن تمتد طولاً وعرضاً ليحضن بهما كل حقول التبر التى انبعثت من طين الحقل .. رمى بصره بعيداً ، جاءته القرية مرسومة فى عينيه لوحة باهرة ، بدورها وتلالها ونخيلها وأشجارها وأبراجها . شب على أصابع قدميه رأى مئذنتها تحوم من حولها طيور بيضاء فى لونها . خرج من ذاته المحدودة إلى حلمه المتوهج ، إلى آماله وأحلامه ، إلى حكاياته المجيدة بزمانها وأحداثها البعيدة . وفى الحلم المتوهج شنفت أذنيه أغنيات غريدة . تغنيها عبلاوات حسان وهن فى أثوابهن التى فى لون الزهر والورد . أرهف إليهن السمع فجاءته من كل مكان ، من فوق رأسه ومن على يمينه وشماله .

صحا الخضرى من حلمه الهادئ على صوت آخر ولكنه أقوى ،

امتزج الصوتان في منظومة واحدة . انفرجت أساريره عندما رأى الأشهب وفوق ظهره صفوان يقترب منه رويداً .. رويداً ، وما أن أتاه حتى نزل الرجل من فوق حصانه وقال ووجهه يفيض بالسعادة :

– خيولنا يا خضرى مزقت رجال سكان البلاد المالحة .

– الله أكبر . الله أكبر ، كيف تم ذلك يا سيد صفوان ؟

مضى صفوان يقول وقد لمع وجهه إشراقاً :

– رجالنا البواسل قد أنزلوا بسكان هذه البلاد هزائم موجعة .

صارت نظرات صفوان كسهام من نور ونار واسترسل يقول :

– حطموا رءوسهم الغادرة الماكرة .

دار الخضرى حول نفسه وراح يصيح ويزعق ويغنى . ومعه جعل حصان صفوان يرفع حافريه الأمامين وينزل بهما على الأرض بقوة ، ويصهل صهيلاً مدوياً . جرت إليهما الفلاحات العبلاوات من الحقل ورحن يغنين .. ويزغردن . تبرعمت الفرحة على وجوه الجميع وملأت الصدور بالبهاء .

امتطى صفوان على أثر ذلك صهوة جواده الأشهب ، وانطلق به كالريح العاصفة ، وهم الخضرى أن يندفع وراءه فأمسك به عبد الرشيد وقال وهو يضاحكه :

– إلى أين أنت ذاهب أيها العجوز المفكك العظام ؟:

قبض الخضرى على فأسه ورد وظلت ابتسامة على وجهه :

– مازالت عظامى صلبة يا عبد الرشيد .

أخذه عبد الرشيد من يده إلى نخلة باسقة وقال وهو يدعوه إلى الجلوس تحت ظلها الممدود .

– استمع الى ما فعله البطل همام .. بالأوغاد .سكتت كل جوارح

الخضرى وقال وهو يحدق فى عبد الرشيد :

- قل بالله عليك ماذا فعل فيهم بطلنا همام ؟

حاور عبد الرشيد بنظراته الأفق المنمق بعروش اللون الأخضر وقال بصوت عميق :

- اقتحم همام ورجالنا البواسل الأسوار والحصون والسدود والجسور واخترقوا صفوفهم وجردوهم من كل ما كانوا يتحصنون فيه .

التصقت نظرات الخضرى بوجه عبد الرشيد وهو يقول بمشاعر حارة.

- كان همام ينقض على فتيانهم ورجالهم بقوته العاصفة .. فكانوا يتساقطون تحت حوافر حصانه الأصهب .. وكان يضرب أعناق الأقوياء ويصرعهم ومن ينجو يفر من أمامه فى خوف ورعب وفزع وابتلع عبد الرشيد ريقه ومضى يقول وقد اشتعل كل ما فيه بالحماس :

- لقد انتزع رجالنا البواسل منهم كل ما أخذوه من القرى والكفور والنجوع .. ومن مساكن ودور .... ومن ماء وزروع وبساتين .

سكت عبد الرشيد وتطلع بعيداً إلى سرب من الطيور ، ولمعت فى وجهه ابتسامة مضيئة . وسرت فى حناياه إشراقات صوفية .. غرق فى تيه اللا محدود .. لبس ثوب المعانى المجردة .. واحتوته إشارات ورموز . امتلأ بوهج القبس المغمور فى فيض اللامنتهى .. كل ما فيه تشرنق فى بوتقة الهاتف الزاعق فى أعماقه .. حول سره الرابض فى أغواره . اشرأب إليه الخضرى برأسه .. وبحثت عيناه فى ملامحه .. عن مدلولات ما يراه من فيوضات وإشراقات فلم ير إلا وضاءة عبد الرشيد.. وقد صار كياناً آخر .. مرشقاً بالرموز والإشارات والمعانى المجردة . لم ينفك عبد الرشيد من هذه الحال إلا على صوت هديل يمامة رقيقة رهيفة . وقيثارة هدهد آسر ساحر فصحا عبد الرشيد من متاهات

ذاته ولبست عيناه ما حوله .. استقر وقال بصوت جلى النبرات :

- همام يا خضرى .. قد ثأر لقريتنا .. قد ثأر لقريتنا .

وانتصب عبد الرشيد واقفا ، ولملم شمل عباءته التى نسجها من وبر جمله الودود ومضى يعبر طريق الماء والعشب .. والشطآن والغدران إلى الأرض البراح .

***

أمسك الخضرى فأسه ، وجعل يساوى به جنبات الحقل ويصلح ما انثال منها من طين وتراب ، وبالقرب منه لمع فيض من ماء تغوص فيه طيور فى لون ندوف القطن .

أخذت الطيور البيضاء الجميلة الودود تمد أعناقها الطويلة فى الماء ، وتغوص بمناقيرها فى قاع الطين .. وتقتنص منه ما دأبت على اقتناصه .

وضع الخضرى الفأس بين ساقيه وطفق يتأمل ما يراه .. غرق فيه .. استرجع فى رأسه سنينه التى مرت .. تألقت فى مخيلته زوجه المعطرة بأريج الأرض .. والتى أرضعت من صدرها السخى بناته الخمس .. وكان آنذاك هو الفتى المشبوب غراماً بهواها .. يفضى إليها بحكايات الليل الدافئة .. وهى فى الليل تعطيه طرح النهر .

" لقد غنيت لها يا خضرى فى رحاب قريتك الرحيبة بين الزهر والورد .. وعلى الشطآن وتحت باسقات النخيل .. كنت تغنى مثل ما علمك أبو مصباح وهو تعلم أيضاً من أبيه الجد . كلهم يا خضرى .. غنوا بهذا المزمار .. الذى هو من بوص الحقل أغنيات الحب والود .. والشجن والوجد .

ظل الخضرى .. يجتر السنين العذاب .. ويعشق ما فيها من ذكريات ، إلى أن نفضت الشمس عنها رحلة النهار ، ودفعت من خلفها

بذبول الغروب ثم لملمت الشمس شمل دثارها وغابت فى المغيب . وضع الخضرى فأسه على كتفه وأمسك ببقرته الصفراء اللون ، خارت البقرة ومسحت برأسها على كتفه مسح هو أيضا بكفه على عنقها ، سحبها وقفل عائداً إلى قريته . دخلها والنساء والعجائز .. والشيوخ .. يتناولون أخبار همام ورفاقه الأبطال وهو مخمور بما سمع وبما يسمع فهو أول من سمع .. وأول من أثلجت هذه الفرحة صدره .

شد الخضرى خطاه إلى داره ، استقبلته بناته الخمس وكلهن فى لهفة على الأخبار. قبل الخضرى .. رءوسهن . وراح يفضى إليهن بما سمع .. ويطالع نظراتهن المتباينة ما بين الفرح والحزن .. والحب والفراق .. واللوعة والشجن . ولما فاض الحديث وحمى معه وطيس الشجون . تركهن وخرج . ذهب إلى رحاب المسجد .. صلى .. وسبح وذكر .. وكبر لله الحى القيوم .. الباسط الرافع .. المعز المذل .

[١٢]

وقفت روح الفؤاد فى شرفة دارها تحدق فى ظلمة الليل المترامية ، تغوص بنظراتها فى نواحيه ، فيخرج السكون من أعماقها آهاتها الحبيسة وما ينوء به قلبها من شوارد الفكر . لقد خرج أبوها مع رجال القرية وفتيانها يطاردون فى الساحات البعيدة أشرار سكان المياه المالحة، خرج وعلى لسانه كلمات الثأر " وأبوك إذا وعد صدق وإذا قرر ركب الصعاب وخاض معها بحار الدم . وأمك أيضاً رحلت ولكنه الرحيل الأخير .. رحلت أمك الجميلة الوديعة الرهيفة إلى الكوثر إلى البساتين إلى الورود والزهور .. إلى اللآلئ والنور .. أنت لم تَرَىْ فى أمك يا روح الفؤاد إلا ما تسمعينه من الناس أماً عذبة الروح .. وضيئة الوجه ..

آسرة الحديث .. ماتت أمك .. وتركتك ولكن أباك قد ملأ فراغها .. بمشاعره النبيلة العطوفة الفياضة . والآن هل ستفقدين الأم .. والأب .. يا روح الفؤاد " وأجهشت بالبكاء .. وعلا بكاؤها نحيباً .. أتت إليها عمتها قوت القلوب على عجل .. وما أن رأت ما هى عليه حتى أخذتها بين ذراعيها وطفقت تبكى كما تبكى .. وتتوجع كما تتوجع .. فهى تبكى أيضا ابنها صفوان الذى لم يعد له موطئ قدم فى القرية .. بعد أن ذهب خاله همام ورجاله إلى ساحة الدم والثأر .

وهى كلما فكرت فى الأمر كلما اعتراها صمت عميق ، أما هذه المرة فقد فاجأتها روح الفؤاد بالمكاشفة . تقول روح الفؤاد وهى تئن وتبكى : هذه المرة لن يعود أبى يا عمتى قوت القلوب .

نزلت الكلمات على رأس قوت القلوب كالسيف القاطع ، بعثرت أشياءها وأفكارها ، " لقد أصاب ابنة أخى ما أصابنى .. إن الأرواح جنود مجندة .. حقاً يا قوت القلوب . رنت قوت القلوب إلى قطع الليل كالجبال الشامخة .. وظلت تحملق فى الليل وتترقب ابنة شقيقها .إلا أن روح الفؤاد لازمت البكاء والنحيب .. وعادت هى إليها وضمتها إلى صدرها من جديد .. ولم تنفك الأذرع عن بعضها البعض إلا على صوت صهيل الأشهب وهو يدق بحوافره العاصفة .. جنبات الطريق .

خرج أهل القرية من دورهم يتقدمهم عبد الرشيد وهو يقول فى فرح :

– الأشهب قد عاد يا رجال قريتنا . ما أن سمعت قوت القلوب وروح الفؤاد هذا الكلام حتى اندفعتا من الشرفة إلى الخارج وكانت ساحة القرية قد احتشدت بالشيوخ والنساء وبعض الفتيان الذين بقوا مع صفوان لحراسة القرية .

نزل صفوان من على حصانه متجهم الوجه ، شارد العينين ، تعتريه

انفعالات شتى .

اتجه إلى عبد الرشيد وأخذه من يده وسارا بعيداً عن الناس ، ودار بينما حديث هامس لاحت دلالاته على الوجهين بالتوجع . التفتت كل العيون إليهما في وجل . طال الحديث بينها واستطال ، وكاد عبد الرشيد أن ينفجر بالبكاء ، جرى إليه الخضرى ومن بعده بعض الفتيان . وما أن ذهبوا ومكثوا معهما قليلا حتى انسحبوا جميعاً إلى الخلف ثم غابوا في ظلمة الليل . جرد هذا الموقف قوت القلوب وروح الفؤاد من كل ثوابت العزم ، أما الفتى زهران فقد انطلق يبحث عن أبيه ، واندفعت ريم وعبلة إلى أمهما وعمتهما وارتميتا على صدريهما ورحن جميعاً في بكاء ونحيب .

ساد الجميع شعور عاصف ، وأخرجت الأفواه ما لديها .. وتعرت الألسن من حلية ما فيها .. وتسربل الموقف كله في غياهب الأمر القابع في الصدور .. بين حناياها وحشاياها وجرت الأحاديث هنا .. وهنالك.. واصطلى سعيرها بنار الشكوك المتأججة في النفوس .

وبعد أن جن جنون النساء اللاتى أمضين ساعات الليل مثلومات القلوب .. ينثرن بذور اليأس المذاب في نقيع السم الأسود . أذن مؤذن القرية إلى صلاة الفجر فهدأت النفوس واطمأنت .

وبعد أن أمّ عبد الرشيد الناس للصلاة ، خرج همام ومعه المصلون ، وكان الفجر المغزول بنور اليوم الآتى قد انبثق من شرنقته وخرج إلى عتبات البوح .. وتسرب بين هامات النخيل الباسقات ثم استحم الكون كله في بحر النور المتألق . قال صفوان وهو يصوب نظراته إلى الناس من حوله .. وبصوت ممتلئ بما يقول :

- لقد قررت الخروج بنفسي .. لألحق برجال قريتنا الذين ذهبوا

ليدافعوا عنا في الساحات البعيدة .

تمتم الشيوخ بالهمهمات وتناثرت ولولات النساء. قطع هذا الصخب المعجون بمر الحديث والمصطلى على جمرات اللهيب صوت صفوان القاطع الحاسم وهو يقول :

- إياكم وتلك الثرثرات القبيحة .. إياكم من هذه الأحاديث الدميمة .

وتنفس صفوان نفساً عميقاً واسترسل يقول وعيناه تعانقان مئذنة مسجده .. ثم تصافحه ، نواحي القرية كلها .. بدورها .. وشوارعها وحواريها ثم إلى الساحات التي شربت من فيوضات الصبح بهاء الضوء. عاد صفوان يقول وقد انتشى بما يرى .

- إياكم والقبح .. فقريتنا لم تعرف إلا نور الشمس .

وتوقد حديثه حماساً :

- أغنيات مصباح .. مازالت تسكن في الدور والحجرات .. وتسرى في الحقول .. وبين الشطآن .

أخذ عبد الرشيد من صفوان دفة الحديث وقال :

- ومازلنا في قريتنا نسمع صهيل خيول رجالنا تأتينا من بعيد .. بأغاني جميلة وأهازيج مجيدة .

سكت الجميع.. وصمتت الألسن.. ووزع صفوان المهام وترك لعبد الرشيد أمر شئون القرية في غيابه. ثم وقف شامخ الصدر عالى الهمة.. وودع الجميع. وبعدها قفز على حصانه ومعه رفاقه فوق صهوات جيادهم. ومدفأة الشمس تشيع في الكون كله، وطيور الصباح تندفع من أوكارها. وأسراب الحمام البيضاء.. تتهادى في موجات كزبد البحر. والقرية الخضراء بين هذا وذاك قد انصهرت في بوتقة سر كونها الأبدى.

اصطلت الأفكار فى رأس صفوان واستعر سعيرها وتوقدت الرأس واتسعت مكاناً وزماناً حتى صارت أرضاً وسهولاً وأنهاراً وجبالاً . فكانت حكاية ما كان ، عند ما كان خاله همام يأخذه صغيراً إلى شاطئ النهر الممتد الى متاهات الأفق ويقول وهو يشرق خداه بالضحك هذا النهر يا ابن شقيقتى العزيزة هو الذى يأتينا بالعذب الفرات .. والفرات هو اسم نهر فى الجنة ثم تعانق نظراته الماء الرقراق وإلى الصيادين وهم فى زوارقهم يرمون شباك الصيد ثم يقول : وهؤلاء يا ولدى العزيز هم الذين يبحثون عن أرزاقهم فى أعماق النهر . وبعدها يقطف زهرة من على الشاطئ المنثور بالأزهار ويرشقها فى جلبابك .. فيطيش صوابك الطفولى .. وتخلع الزهرة الجميلة .. وتضعها بين عينيه النافذتين .. فينفرج شدقاه بالضحك .. ويمسح خالك بيده الصلبة على رأسك ...

ويعاود النظر إلى النهر .. ويتمتم بأغنيات جيلة للأرض التى امتدت حقولاً خضراء. ويحكى لك أهل القرية عن خالك همام حكايات جميلة .. عن فتوته .. ورجولته .. ومروءته وجسارته ويقولون فى فخر :

– خالك همام يا صفوان هو حارس قريتنا هو القوى الأمين والمهيب الجسور.

اشتعلت فى رأس صفوان الذكريات وتدافعت كموج البحر الصاخب ، طفقت تعلو .. وتعلو ويرتطم ما فيها بما فيها . زفر صفوان زفرة كلفيح اللهب .. قذف بنظراته .. سافرت بعيداً بعيداً بعيداً .. هنالك إلى ما خرج إليه خاله همام ومعه الرفاق .. إلى ساحة الثأر والدم. زعق صفوان بوجه مندى بالدموع :

- ماذا فعل خالى همام عندما جاءه أمر الشهيد زيدان ؟

رد شاب بحماس :

- جمع أهل قريتنا فى التو .. وقادهم إلى الخروج .

وأضاف شاب آخر بتأثر شديد :

- ولم تفارق شفتيه كلمات الثأر للشهيد زيدان .

ما أن سمع صفوان ذلك حتى شد وثاق حصانه .. فرفع الحصان قائمتيه إلى أعلى ونزل بهما فحفرت حوافره أخدوداً على الأرض وجعل الحصان يدور حول نفسه .. ويصهل صهيلاً مدوياً .. فتصهل من بعده خيول الرفاق . وما هى إلا لحظات حتى ترك صفوان العنان لحصانه الأشهب ، انطلق الأشهب بحوافره العاصفة ومن ورائه خيول الرفاق أخرجت الخيول ألسنة النار من حواف حوافرها .. وهى تصطك ببعضها البعض .. وهى تسابق الزمان والمكان .. حتى صار المشهد .. أشبه بملحمة من الثأر التترى . لقد شدت الخيول أعناقها ووقفت رءوسها والفتيان فوق صهوة ظهورها أنفس ثائرة ، بعد أن روعهم المصاب الجلل . ظلت الخيول تطوى الدروب ، وتسابق الريح ، وتصك أجواز الفضاء بصيحاتها الثائرة . حتى لاحت من على بعد ربوة عالية تعانقها أشجار كثيفة . ما أن شاهد صفوان تلك الربوة واستقر مشهدها فى رأسه حتى هدأت جولته الجامحة . أمسك بوثاق فرسه وجذبه إليه يدعوه إلى الهدوء .. استجاب الحصان لفارسه فهدأت الحوافر على الأرض وانتاب صفوان شعور مفاجئ أطفأ ما فى صدره من لهيب الغضب .. وثوَّبه بالخشوع، فتشرنقت فى رأسه ثورة الأفكار الهادرة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ، وسرت بين ضلوعه وحناياه بين لحمه ودمه وعظمه . وزعق فى أعماقه نداء عميق عميق .. سبر

أغواره.. سلبه مما كان فيه إلى ما انتهى إليه .

وقف صفوان .. ومن ورائه خيول الرفاق .. ظهر الليثى من بين أشجار تلك الربوة نزل صفوان ومعه الجميع من فوق ظهور خيولهم . صافحهم الليثى .. ثم قال والحزن يكسو كل ملامحه :

- هنا يا سيد صفوان وفوق هذه الربوة يستريح الشهيد همام .. ومعه من استشهد من رجال قريتنا .. والقرى والكفور والنجوع المجاورة.

أشعلت هذه الكلمات المعجونة بلهيب الدم نار الثأر فى قلب صفوان .. فتحرك إلى الأمام وحدق فى الربوة طويلاً .. ثم تقدم إليها ومن ورائه الرجال .. وما أن اعتلوها حتى أخذهم المشهد المهيب . الربوة تحيطها أشجار زاهية ضخمة مهيبة وتسكن فيها أسراب الطيور .. وتتقدمها نخلتان باسقتان . بدت القبور أمامهم كأقباس من نور علوى، أطمأنت النفوس وهدأت القلوب . تقدم الليثى بضع خطوات إلى الأمام وإلى الوسط من دائرة القلب وأشار بيده إلى مقبرة كبيرة رحيبة . قال بصوت خاشع :

- هذه هى مقبرتهم الجماعية .

تطلعت العيون .. كل العيون إليها .. فرأت طائراً جميلاً يحط عليها وما أن اقتربوا منها حتى رفرف الطائر بجناحيه الأخضرين. بهرهم بلونه الباهر ، ضم جناحيه ثم هدل .. هديلاً رخيما آسراً ، لم يسمع أحد غريداً مثله من قبل . تسمرت الأرجل بالأرض . والعيون بالطائر وبعد قليل .. رفرف الطائر بجناحيه وندت عنه خفقات هادئة وديعة . ثم انثنى قليلاً قليلاً .. وبعد ذلك انساب .. إلى أعلى ..كنور الفجر.. وذاب الطائر فى براح الكون . ساد السكون الجميع .. بنظراتهم مع الطائر المسافر إلى غياهب الغيب . فجر الصمت العميق

صوت الليثى وهو يقول بقلب مثلوم :

- رأينـا .. ورأى شيـوخ القرى المجاورة .. أن ندفنهم جميعا فى مقبرة واحدة.

انتفض الحزن الساكن فى حنايا صفوان .. فتق السر الساكن فى شرنقة السنين .. تذكر صفوان كلمات خاله همام.. لقد تنبأ الرجل بنهايته؛ لقد قلت لى يا خالى العزيز والله على ما قلت شهيد: قلت منذ سنين مضت وأنت تمسح بيدك على شعر عنق حصانك الأصهب:

سأرحل عن هذه الدنيا وأنا عند مواضع حوافرك العاصفة . وكنت ترددها كثيراً يا خالى الحبيب .. أعادت كلمات الليثى إلى رأسه هذه الذكرى وهو يقول :

- والغريب فى الأمر .. يا سيد صفوان . أنه بعد استشهاد همام .. تسمر حصانه الأصهب بمكانه .. رقد بجواره ولم يتحرك وعندما أردنا أن نخلعه من الأرض وجدناه قد فارق الحياة .

انتزع صفوان قدميه وقذف بهما إلى ما يشير إليه الليثى ، وامتدت عيناه إلى أسفل الربوة فرآها تنبسط خضوعاً تحت ضوء الشمس . سيطر المشهد المهيب على الجميع وحرك فيهم آهات الشجن . الآن قد سجلت يا خالى الحبيب .. أروع صفحة من صفحات سجلك الباهر .. تركتنا يا همام .. يا ابن الشمس والقمر .. يا ابن الليل والنهار والأرض والنهر .. والزهر والبساتين والورد " سكت صهيل حصانك الجامح " .

زعق صفوان من أعماقه .. وعاد يقول لنفسه : " هل يصمت الصهيل من بعدك يا خالى همام .؟: أبداً .. لن يسكت .. سيظل نداء يعصف بالقلوب .. سيشعلها ناراً .. وثأراً ودماً .

ولما اشتد الشجن على صفوان وجرى على كل ملامحه قال الليثى

وهو يجالد هذا الموقف :

- حان وقت التحرك يا سيد صفوان .

ما أن سمع صفوان هذا القول حتى صاح فى الرفاق يدعوهم إلى التحرك السريع فنزل الرفاق من أعلى الربوة ، وامتطوا صهوة خيوله قال صفوان وقد عادت إلى صوته صولة السيف :

- حدثنى ماذا تم حتى الآن مع سكان تلك البلاد ؟

رد الليثى وهو يدفع جواده إلى الأمام :

- لقد تمكن الشهيد همام .. ورجاله البواسل من سحق عدد كبير من سكان هذه البلاد فى مواضع كثيرة وبلع الليثى ريقه واسترسل يقول بفخر :

- كان يتركنا .. ويندفع إليهم غير هياب منهم يشق صفوفهم .. وينقض عليهم بكل قوته فيدمر قواهم ويحطم عدتهم وعتادهم .

ومضى يقول فى تأثر شديد :

- غير أن الأشرار كانوا له بالمرصاد رأوا أن الخلاص منه هو الهدف الأول لهم . لهذا تزاحموا عليه وأحاطوه من كل جانب . انقضوا عليه جميعم مرة واحدة . وراحوا يطعنونه من كل جانب .

وزفر زفرة مرة واسترسل يقص ما حدث :

- ومع كل ذلك . كان همام البطل الجسور يتصدى لهم بكل قوة وصرع منهم الكثيرين .. وكان يقول لنا وهو يطيح بهم الواحد تلو الآخر : أكملوا الرسالة يا رجال قريتنا الشرفاء ولما تكاثرت جراحه وسالت دماؤه وملأت الأرض نوراً وناراً .. لاقى حبيبنا همام ربه وهو فى رضا ونحن فى ذهول مما حدث .

واجهش الليثى بالبكاء . وغالب صفوان انفعالاته ومواجع قلبه .

ونظر إلى ما حوله وجد رجاله قد أراحوا وثاق خيولهم .. بعد أن لحقت خيول اللاحقين بالسابقين . وبعد أن تكاتف الجميع فى حشد واحد قال صفوان وهو يكحل عينيه بنور القمر .. ويندى صدره برائحة الأرض والماء .. والزروع الممتدة من كل مكان :

– فى الفجر ستكون هجمتنا الكبرى بمشيئة الله تعالى يا رجال قريتنا الشرفاء .

[١٤]

ما أن ورّدت شمس الشروق جبين الأفق ، واندلاح النور سارياً فى البطاح ، وتألقت حبات الندى فوق بساط الحقول الخضراء حتى خرجت فتيات القرية العبلاوات من دورهن .. يصدحن بالأغنيات الجميلة ينفضن بها عن صدورهن حرارة الوجد المشتعل فى الصدور لوعة على فراق رجالهن الذين خرجوا إلى ساحة الدم والثأر .

انتشرت جماعات جماعات على الشطآن والجسور، وحول السواقى وبين غدران الماء وانتشرن على الأرض التى لبست الألوان كلها ، وسرت فيها كل حروف الألف والياء . لقد أجج شوقهن لرجالهن حكايات الليالى الجميلة ، فكل ما فى قلوبهن موصول بهم .. وإن كانوا مسافرين فى غياهب الغيب . وأما بنات الشهيد زيدان فقد جاشت فى صدورهن آهات البوح الشفيف. قالت واحدة منهن وهى تنثر نظراتها على الأرض بين الزروع والورود والزهور :

–لهفى عليك يا أبى الشهيد .

أتاها صوت ممتلئ بالشجن :

– إنه هنالك يا ابنتى فى الأعالى .

نظرت الملثمات بالحزن إلى الصوت الآتى فوجدن عبد الرشيد يلتف في عباءته ويغيب فى تيه المنتهى فجرين إليه وقالت واحدة منهن بصوت أسى حزين :

- ورجالنا يا عمنا الشيخ ؟

- أنتم يا بناتى العزيزات مع القوى العزيز مع الرحمن الرحيم .. الذى تتسع رحمته لكل شيء جل جلاله .. وتقدست أسماؤه فى الأرض والسماء .. أرخت البنات الجميلات الملثمات بالحزن رموشهن ثم انطلقن مع الرفيقات إلى الحقول حول ينابيع الغدران وإشراقات الضوء وبهاء الشمس ورحن يغنين فى وجد وشوق وشجن .

***

قبض عبد الرشيد على عصاه وسار بين المسالك والدروب .. تعشق عيناه وضأة الصبح .. وتسترق أذناه السمع إلى ترانيم البوح ومشاهد خروج الرجال إلى ساحة الثأر . طفق عبد الرشيد يروح ويجيء إلى أن التقى بقوت القلوب وروح الفؤاد .. والجميلتين ريم وعبلة . وما أن رأته قوت القلوب حتى قالت وكل ملامحها تنطق بكل ما فيها :

- الشهيد زيدان صار سيرة محفورة فى قلوبنا .

نزلت هذه الكلمات على صدر عبد الرشيد كالسيف القاطع فماذا سيقول لها ، وهمام شقيقها قد صار شهيداً مثله؟ اعتراه شحوب وأسى ولاذ بالصمت . عادت قوت القلوب تقول بقلب يعتصره الأسى :

- قد يكون المصاب أفدح عندما يأتى إلينا الرجال يا عبد الرشيد .

وتطلعت إلى بهاء الكون واسترسلت تقول :

- ولكنه الشرف والكرامة والدفاع عن العرض والمال والأرض .

تدخلت روح الفؤاد وهى تحمل فى أعماقها مفاتيح أسرارها :

- قلبى يحدثنى منذ أن خرج أبى همام .. بأشياء كثيرة .

وعادت روح الفؤاد تقول وهى تحبس عبراتها :

- وخرج زوجى بعد أبى .. ولا أدرى ما وراءه من أسرار .

ومالت برأسها إلى صدر عمتها قوت القلوب فمسحت قوت القلوب بيد حانية على رأسها وقالت وهى تجالد الموقف الصعب :

- لا يا أبنتى .. لا يجب أن تكون بنات الرجال العظام .. على مثل هذه الحال .

ومضت باقة الورد أو صحبة أولاد السيف إلى سبيلهن .

دارت الأرض بعد انصرافهن من حول عبد الرشيد ، أيقول لهن ما حدث لهمام ؟ أيقول لهن أن هماماً .. قد صار الآن فى حواصل الطير الخضر ؟ أنت نفسك يا عبد الرشيد لا تصدق أن هماماً قد فارقنا .. ولم يعد منا ، لقد صار من أبناء الكوثر . " نظر عبد الرشيد إلى الأرض والنهر ، وإلى باسقات النخيل فوجد الفتيات مازلن يصدحن بالغناء ، وقد توسطتهن فتاة قوية عفية تلمع وجنتاها الحنطيتان فى وهج الشمس .. وتتألق عيناها الخضراون ببهاء الأرض . وجعلت الفتاة العفية تقول كلاماً جميلاً بصوت عذب عن بطولة الرجال وجسارة الفتيان ، تقول بصوت قوى النبرات :

بعد أن جاء إلى قريتنا الشهيد زيدان .. زين الشباب .. خرج عمنا همام فوق ظهر حصانه ومن حوله الرجال .. وجرى الدم فى عروق الشريف النبيل فأخذ يردد ويقول ، قتل زيدان وهو يدافع عن شرف قريتنا يا رجال لن تغمض لى عين بعد الآن إلا بعد أن نثأر لشهيدنا زيدان .

وطفقت البنات يرددن من ورائها ما تقول بصوت قوى .

[١٥]

صهل حصان صفوان الأشهب. رفع حافريه إلى أعلى ثم نزل على الأرض ، ومن بعده صهلت كل الخيول .. صافحت عينا صفوان الرجال وهم يمتطون صهوة ظهور خيولهم. تألق وجهه بابتسامة عريضة .. استرجع بها الأيام التى انقضت والتي تلون لونها بلون الدماء . انسردت فى رأسه مشاهد الخيول ومعارك الالتحام والصولات والجولات والدم المراق تحت حوافر الخيول العاصفة التى نقشت على الأرض مجدها وفخارها . وتجسدت فى مخيلته الملامح التى حفرت تاريخها فى ذاكرة السنين . فهاهم الرجال . يا صفوان يعودون إلى قريتهم .. يحملون أكاليل النصر المحلى بوهج الدم والثأر الشريف . لقد جرد رجالنا البواسل عصابات بلاد المياه المالحة من كل قوتهم، ردوا كيدهم وغدرهم إلى نحورهم، ألبسوهم أسمال الخزى والعار .

عاود الحصان الأشهب صهيله.. وصهلت من ورائه الخيول . تقدم علوان إلى صفوان وهو ما يزال معمماً بألوان المعارك، وقال والفرحة تغرد على وجنتيه :

- نحن نقترب من قرانا الخضراء .

جرت الخيول وأخذت حوافرها ترسم على الأرض مشاهد ما جرى ، اجتازت الدروب والجسور والمناحى والآفاق .. تحكى فى كل ذلك عن الأيام المجيدة التى عاشتها فى ساحة الدم والثأر. وصلت الخيول إلى الربوة العالية التى تحضنها أشجار السرو والكافور والكازورين وتحرسها النخلتان الباسقتان . نزل صفوان من على حصانه ومن بعده الرجال وصعدوا إلى الربوة حيث مقابر الشهداء ، أحنوا رءوسهم ، ساورهم شعور مفعم بالشجن .

قال صفوان والرجال من حوله :

– علينا أن نتذكر دائما شهداءنا.. كلما أخذتنا مباهج الدنيا وزينتها.

نزل الرجال من على الربوة إلى الدنيا الرحيبة إلى الماء الرقراق والزروع الناضرة.. إلى الشطآن والغدران والورود والزهور.. إلى رائحة الأرض وبهاء الكون. شدت الخيول خطاها قال الليثى وهو يقترب بحصانه من صفوان :

– لقد خرج سكان القرى والكفور والنجوع.. ليحتفلوا بعودتنا منتصرين.

تدفقت الأصوات وتعالت.. وسادها صخب محموم بحرارة الفرحة العارمة وانطلقت أغنيات جميلة فيها مآثر ما مضى وفرحة ما انتهى. وما أن اقترب الركب من أول قرية من تلك القرى حتى هدرت الأصوات كالموج الصاخب. وبدت على مرمى البصر. تكوينات جميلات لفتيات تتألق وجوههن نضارة وبهاء.. ومن ورائهن نساء وعجائز. يتمتمن بالأغنيات البهية. فالكل قد خرج لاستقبال الموكب المنتصر الذى يقوده صفوان ومن خلفه الرجال الأشداء.

جرى الليثى إلى صفوان وقال :

– رجال كثيرون من هذه القرية.. بحكم أنها القرية الأقرب إلى منطقة المعارك. وأضاف علوان :

– وتجرى فى سكان هذه القرية دماء حارة فوارة. نزل صفوان من على حصانه الأشهب وتبعه الرجال، وسلموا على جميع أهل القرية وبعد ذلك عاود الركب مسيرته واستمر يجتاز القرى والكفور والنجوع.

وصفوان طوال ذلك يعايش هذا البحر الهادر من المشاعر الحارة.. يركب معهم الموج والريح ويعلو بهم إلى الآفاق، ويستحم فى صفاء النبع فيتألق بهاءً وصفاءً.

سـار الركب على دربه .. إلى أن أتى إلى مـشـارف القـرية الزاهرة العامرة وهنا اهتز صفوان على فرسه .. سرت فى حناياه دفقات من نور علوى .. وتفتقت شرنقة السنين فى رأسه . القرية ترسل إلى العائدين روائح شـذاها المعطر بسـحر السنين وبأريج مـا فـيـهـا وبـرائحـة نهـرها الرقـراق .. ومـائهـا المنسكب من بين الشطآن . ومـا أن اقـتـرب الركب منها ثم وصل إليها . حتى اندفع كل من فيها لاستقبال رفاقهم العائدين من ساحة النصر المبين . وما أن التحم الكل بالكل حتى صـهلت الخيول صهيلها الجامح .

نزل مـصبـاح من فوق جواده وجرى إلى ساحة قريته .. وأخرج ناية من بين حضن جلبابه وأمسك بهذا المزمار الذى صنعه من بوص حقله .. وراح يدفع بأصابعه الرشيقة على ثقوبه . أنساب النغم غريداً شجياً ، عذباً جميلاً . تسـمرت به حوافر الخيول بـالأرض . وسكت الصخب ورقد فى الصدور . وطفق مـصبـاح يلاعب مزماره ويحاوره بأنغامه . والنغم الحلى يسرى فى الأنحاء كلها . تسترق إليه السمع أذان الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ويصبح مـصباح سيد هذا المشهد كله . ويحكى القـصـة من البـداية . منذ أن أتى زيدان إلى القـرية شـهـيـداً . وكلمات الثأر التى اندفع بها همام إلى الرجال . وصولاته وجولاته فى ساحة الثأر والدم . وينتقل مصباح من لحن إلى آخر وتؤجج الأنغام فى صـدور الرجال مشاعر نبيلة .. وتخرج من قلوب النساء آهات البوح والوجد والشجن .

وتلتـقط قـوت القلوب وروح الفـؤاد أصـداء هذا البـوح فـيـبكى قلباهما .. ويخضل وجهاهما بالدموع . يتحول اللحن سريعاً إلى نغم آخر . فيه رقة .. وعذوبة وفرح وسرور يتغنى بالانتصارات الجميلة .

ويظل الحال على هذا الحال إلى أن ينتهى الموكب .. وينفض الناس وتدخل الخيول إلى حظائرها ويدخل الرجال إلى دورهم .

***

كابد صفوان موقف رحيل خاله همام مع أمه قوت القلوب وزوجه روح الفؤاد، وبدت العيون تتكلم .. والقلوب تتوجع .. أخذها صفوان بين يديه .. وخرج بهما إلى خشوع الليل .. وبهاء النجوم وقال وهو يدعوهما إلى رحابة الكون :

- علينا جميعاً أن نتذكر .. أن رجل الرجال وفارس الفرسان .. قد ..

قاطعته أمه قوت القلوب قائلة :

- قد رحل شقيقى همام .. ورغم رحيلة فهو سيظل مزروعاً فى قلبى .. ساكناً بين ضلوعى.

وعصف الحزن بقلب روح الفؤاد فقالت وكل ما فيها يبكى :

- أبى همام .. سيبقى نشيد حياتى .. وقرة نفسى وخلاصة عمرى.

وبلعت ريقها .. وغرقت عيناها فى الدموع واسترسلت تقول وهى تتوجع :

- لقد رأيت أبى فى رؤياى أتانى وحدثنى حديثاً جميلاً .. وهو فى ملابس بيضاء بين الظل الممدود والماء المسكوب والورد المنثور .. وفى وجهه هالة من نور، وعندما جريت إليه لألحق به ابتسم لى ابتسامة وضيئة ثم انسحب إلى الخلف قليلاً قليلاً .. إلى أن توارى كفيض نور علوى .

[١٦]

صحا مصباح من على فراشه الدافئ بدفء السنين. فتح باب داره المفتوح على بساط الحقل وجسر النهر، سافرت نظراته إلى رحابة الصبح بأيات الكون. احتواه غرام الشوق الدفين. جاءت ابنته خضراء العينين

وقد صارت صبية عفية شذية تحمل فى يدها كوباً من اللبن وقالت :

- لبن من ضروع النعاج التى تحبها يا أبى العزيز .

أمسك بكوب اللبن . . وارتشف قطرات من الحليب تطلع إلى ماء النهر اللامع بضوء الشمس وقال ومزيج اللبن يتقاطر من بين شفتيه :

- اشتقت إلى أغنامى يا قرة عينى .

خرج كبش ملفوف القرنين من حظيرته . . وراح يغازل خضراء العينين بوثبات خفيفة رشيقة . ابتسمت له الفتاة وأمسكت بقرنيه المصقولين وقالت وهى تداعبه :

-أفرحت بعودة صاحبك ؟

وثب الكبش على العشب الأخضر . . وأدار رأسه إلى الحظيرة ، ونادى نعاجه . اندفعت النعاج تجرى إليه . تسمر كبشان صغيران بباب الحظيرة . . ثغا الكبش الملفوف القرنين ثغاء غاضباً . . انطلق إليه الكبشان الصغيران . أعطى الكبش الملفوف القرنين ظهره للقطيع وسار إلى الأمام فسارت من ورائه كل الأغنام. ضحكت الفتاة الخضراء العينين وقالت لأبيها فى سعادة غامرة .

- عنك يا أبى . . سأرعى أنا الأغنام هذا اليوم .

***

اتخذ مصباح طريقة إلى النهر . . تحسس جيبه تأكد من وجود المزمار فى حضن جلبابه. سار على الشاطئ والشمس تغزل دوائر من أنوارها فى رحابة الظل ، ونسمات الصبح تراقص أغصان الشجر ، والطيور تتدافع أسراباً فى لون ألوانها . دس مصباح يده فى جلبابه وأخرج منه عود البوص الأسطورى . . ورشقه بين شفتية . امتدت أصابعه رلى ثقوبه . . ارتعشت الشفتان . انساب اللحن سخياً . . فيه حرارة الوجد . .

وآهات الشجن . سارت قدماه والقلب المزروع بين جنبيه يعانق مع كل خطوة زهرة .. يشم من عطرها الأخاذ حلاوة العشق . سرى التغريد في النواحي والمرامي لثم هامات الطبيعة .. بعد أن شربت من بوحة بهاء الهوى . اندفع مصباح. تسابق قدماه كل شيء وعند العريش الأخضر ، ما بين غدير النبع وبراح الأرض وقف . ولكن ترانيمه لم تتوقف .. تدافعت .. تدفع من خزينة أوجاعها كل عذابات العشق والوجد والشوق . وفي أعماق الماء الصافي الرقراق رأى مصباح .. الوجه المنقوش بحبات الضوء .. تسمرت قدماه بالأرض . هدأ اللحن وتبرعم.. ثم وقف وتشرنق .

قالت بصوتها الآسر الساحر :

- أهلاً بك يا مصباح .

أدار لها مصباح كله .. رأى البدوية الحسناء الوحشية النظرات تلبس خدرها الموشى بألوان الطيف . مد إليها يداً مرتعشة .. استقبلتهما بيد قوية صلبة ..

وقالت :

- اشتقت لرؤياك يا مصباح .

وفي التو رد كوثبة النور من عين الأفق :

- وأتيت كالريح .. للقياك .

وضحك كل ما فيه.. وغابت عيناه في وجهه ثم عاد يقول حالم النظرات :

- وكنت على أحر من الجمر .. أنتظر هذا اللقاء .

- بعد أن عدتم . كان يجب أن أراك .

تساءل في دهشة :

- وهل علمت بخروجنا وعودتنا ..؟

- أجل . وعرفت كل ما حدث هناك فى ساحة الثأر والدم .
- وكيف كان الخروج ؟ وكيف كانت العودة ؟
- أعظم ما كان فى هذا الخروج شهادة همام .. وصولة صفوان .. وبسالة الرجال.
استرق لها مصباح السمع .. ثم تساءل بصوت خافت :
- وكيف كان ذلك ..؟
أجابت ونظراتها تسبر أغواره :
- منذ الخروج .. كان همام يتهيأ لملاقاة ربه .. وقبل الشهادة جمع رجاله من حوله وقال وعيناه تتسعان بالنور : إننى أرى قريتى يا أحبائى.. أرى دورها وشوارعها وحواريها .. وأشجارها ونخيلها وزهورها ... وورودها .. ورجالها وشيوخها ونساءها وأطفالها .
وزفرت زفرة كومضة البرق واسترسلت تطلق حديثها :
- وقبض على حفنة من تراب الأرض ، وقال : وهذا التراب أتيت به من قريتى الزاهرة العامرة، اجعلوها دائما بين أعينكم .. وضعوها بالحب فى قلوبكم .
وتنهدت بحرارة .. ومضت تقول بتأثر شديد :
- وقال : وصيتى لكم يا رجال قريتنا البواسل.. أن تزوجوا بنات شهدائكم من فتيان رجالكم. وما أن قال هذه الكلمات .. حتى استراح وجهه .. وانطفأت العينان وخرج السر الأعظم من الجسد الطاهر.
اشرأب مصباح برأسه واهتز كل ما فيه وغابت عيناه قليلاً .. تترجم ماسمع .. وتسترجع ما حدث .. وما أن عاد إليه حسه حتى سمع البدوية تسترسل فى الحديث :
- وجاء صفوان على إثر وصية خاله الذى رحل ودخل المعركة

ببطولة وشرف .. كان صفوان ينقض على الأشرار بقوة وجسارة فيصرع منهم من يصرع .. ويفر ويكر ويكر ويفر حتى خاض بحصانه الأشهب بحار الدم . وكلما حميت المعركة واشتد قتال الرجال كلما زعق صفوان فى الرجال يقول لهم : وصيتك يا خالى الحبيب منقوشة في الرأس ومحفورة فى القلب. وسافرت نظرات البدوية بعيداً .. وأشرق وجهها نوراً .. وبهاءً وهى تقول :

– ولما عاد صفوان بعد الانتصار جمع شيوخ ورجال قريته ودعاهم لتنفيذ وصية خاله ليتزوج بنات الشهداء من فتيان الرجال وأن يكون ذلك فى عرس كبير يجمعهم فى ليلة واحدة . ما أن سمع مصباح ذلك.. حتى أخذ يدق بقدميه الأرض .. ويقول لنفسه هذا ما حدث بالتمام والكمال، البدوية الحسناء تقول كل ماحدث .. وراح يدور حول نفسه وهو مسبل العينين .. ويدور .. ويدور وما أن وعى إلى حسه حتى وجد وحشية النظرات قد توارت عن عينيه .. التفت يميناً ويساراً.. وبحث هنا وهنالك فلم يعثر لها على أى أثر .

غاصت نظرات مصباح في غدير الماء الرائق .. فلم ير إلا الحصى يتألق كالياقوت واللؤلؤ . لف ودار من جديد وانحنى وانتصب ثم دوى فى أذنيه نداء صاخب فك قيود القيد من مواضع حسه وخلجات قلبه ووقدة عقله . وإنطلقت الرغبات الحبيسة من مراقدها .. صحت وتوهجت .. وسافرت إلى المرامى البعيدة. سارت مع ماء النهر المتدفق . واعتلت ذرا الموج الهائج المعمم بالزبد . انطلقت مع الريح العاصفة.. وأمام كل هذا أطلق مصباح قدميه للريح . واستقبلته الطبيعة بكل ما فيها . بالأخضر والأحمر والأبيض والأزرق . بالهديل والنوح .. بالنور والظل .. بالماء والطين والعشب وبعد أن اجتاز المسالك والدروب ..

لاحت قريته على مرمى البصر . تطرح فى نواحيها أسرار ما فيها .
وعندما اقترب منها سمع الفتيات العبلاوات تغنى على الشطآن
والجسور فصحت نفسه على لغز ما رأى . تناثرت الأغنيات على
مساحات الحقول الخضراء .

«وغداً سيكون عرس الأعراس.. عرس الأعراس كلها.. كما أوصى
بذلك حبيبنا الراحل همام.. لقد عقد صفوان العزم على تنفيذ وصية
خاله يا مصباح. وجعلها رسالة صادقة بين يديه " وتألق وجهه بابتسامة
عريضة وعاد يخاطب نفسه: وغداً سيكون عرس الأعراس كلها..
سيتزوج فتيان الرجال من بنات الشهداء. وجرت فرحة غامرة بين حناياه
" وستكون ابنتك الجميلة.. خضراء العينين.. واحدة من تلك البنات ".

انتهى مصباح إلى داره واندفع إليه وفتحه .. استقبلته ابنته خضراء
العينين وقد أحمر خداها . وصارا فى لون الورد ابتسم لها وابتسمت له.
غنى لها .. أحنت رأسها إلى الأرض . افترش مصباح الأرض .. وأخذ
رغيفاً من خبز داره الساخن الطازج .. وقطعة جبن من ضروع نعاجه..
وراح يأكل فى سعادة.. بينما أخذت أغنامه تثغو أمامه .. ووزه وبطه
ودجاجاته تدور وتلتف من حوله.

[١٧]

توالت زغاريد النساء فى القرية كلها ، فى الدروب والشوارع
والحوارى والساحات .

قالت قوت القلوب وهى تمتلئ بالفرحة والشجن :

- لقد نفذ صفوان وصية خاله همام .

انصهرت حبات الحزن المتناثرة فى حنايا روح الفؤاد وقالت وهى

تغالب دموعها :

- أجل يا عمتي .. لقد نفذ زوجي صفوان وصية أبي الحبيب .

وانهمرت الدموع من عينيها ومضت تقول :

- وكم كنت أتمنى أن يكون أبي الآن بيننا ليرى هذا المشهد العظيم.

ربتت قوت القلوب على كتف روح الفؤاد وقالت وهي تجالد تداعيات الموقف :

- اليوم هو عرس ابنتيك الجميلتين ريم وعبلة .. وخطبة العزيز زهران من بنت الشهيد زيدان .

وثبت على وجهها الوضيء إشراقة نور وعقبت :

- حقاً إنه عرس الأعراس كلها .. عرس بنات شهداء القرية .. على فتيان رجالها . تدافعت الزغاريد قوية عفية .. وبدت ريم وعبلة وردتين جميلتين شذيتي الريح واندفعتا إلى عمتهما وأمهما وراحتا تمطرانهما بالقبل . فاليوم هو عرس الأعراس كلها . وقد جعل صفوان من داره مقراً لهذا العرس الكبير .. أخذت الفتيات ومعهن أمهاتهن وأخواتهن تتوافدن على دار صفوان .. ودار صفوان الرحيبة قد فتحت بابها على مصرعيها .. وترتسم رموزها على غرة مدخلها . حضرت بنات الشهيد زيدان تحيط بهن فتيات كثيرات وكلهن كالأقمار المتألقة رغم مسوح الحزن الشفيف على وجوههن وتتوسطهن أمهن وهي تماثل بناتهن في ذاك الجمال المثلوم بلوعة الفراق . ووقف صفوان في ساحة القرية ، وبجواره عبد الرشيد وعلوان والليثي ، ليشرف على العرس الأكبر ، ويوزع المهام .. على الجميع . وقد صار صفوان في هذا اليوم رمزاً لأهل القرية ، بل للقرى والكفور والنجوع المجاورة . الذين جاءوا للمشاركة في ذاك العرس الكبير .. وبعد أن عاين الأمر وتحراه دعا

راكبى الخيول بالحضور إلى الساحة ، أتت الخيول وتختال الخطى ، جاءت الشهباء و الصهباء ، والتى فى لون النهر .. وبهاء الأرض ، أتت الخيول كلها إلى الساحة . غرد قلب صفوان ولبس وجهه ثوب النعيم كله ، طفق يحدق فى الخيول بأعناقها وشعورها المسترسلة ، وحوافرها العاصفة يرهف السمع إلى صهيلها . لمح صفوان حصاناً أصهب اللون مثل حصان خاله همام . سافرت عيناه بعيداً .. هنالك إلى ساحة الثأر والدم ودوى فى أذنيه صيحات خاله همام وهو يزعق فى جموع الرجال : الثأر .. الثأر الثأر للشهيد زيدان .. يا رجال قريتنا الشرفاء . وحومت الذكرى المجيدة فى رأسه .. وكادت أن تجرده مما هو فيه وخاله يصيح ويقول : " سأموت عند موضع حوافر حصانى الأصهب " ووصيته للرجال قبل أن يلاقى ربه : " وصيتى لكم يا رجال .. أن يتزوج بنات الشهداء .. من فتيان الرجال " ودوت فى أعماقه صرخة مكتومة كلماتك يا خالى العزيز مازالت تجرى فى عروقى ...وتسرى فى دمى شد صفوان صدره .. وأطلق نظراته بين الجموع وقرأ ما يراه : الفرحة .. والنشوة .. والرجال والفتيان .. والنساء والفتيات .. والقرية التى لبست ثوب أفراحها . إلى أن صهلت الخيول .. صهيلها المدوى .. وضربت بحوافرها العاصفة الأرض ثم بدأت موكبها . تسابق الفرسان من الرجال والفتيان .. والفتيات .. وتعالت .. دوامات الغبار .. وعلا الصهيل والتصفيق .. والتشجيع واحمرت الأكف من التصفيق . وبعد ذلك هدأ المشهد .. وتغير . راحت الخيول تدور .. وتدور . وتلتف وتلتحم وتنفك وتنحنى .. ثم هدأت وانتشت فى فرحة غامرة .. عندما راحت تدق بحوافرها الأرض وتتراقص مع دقات الطبول . أخذت النساء تزغرد وتزغرد .. وتنشر حبات الملح فوق الرءوس . انتهت الخيول من

مهمتها.. وتركت الساحة وعرق الفرسان مازال يتقاطر على وجوههم.

وبعد ذلك التفت حول الساحة فتيات عبلاوات .. جميلات رشيقات.. مشرقات متألقات كالأقمار والبدور .. وجوههن تسطع بالبهاء .. وعيونهن تفيض بالنعيم .. وأخذن يغنين أغنيات عذبة رخيمة .. وفى فيوضات هذا المشهد الجميل جرى مصباح على الأرض.. اعتلى أعلى مكان فيه وأمسك بمزماره .. والتقت أنامله على ثقوبه .. ارتعشت الشفتان وسافرت العينان .. بعيداً .. بعيداً .

أنساب النغم .. هادراً .. متدفقاً .. ساحراً آسراً . ضرب بسهامه القلوب سرت أشجانه بين الحنايا والحشايا .

جرى النغم فى الأجسام مجرى الدم فى العروق . وألبس الوجوه ثوب الصبابة والوجد والعشق والشجن . أرهفت له الأذان السمع .. وأرخت له العيون أجفانها وسافرت معه النظرات حامت وهامت . ولبست كل نفس مبتغاها وارتادت عوالمها ... وتلونت بلون أمانيها ذاقت معه حلوها ومرها . أسكرتهم الأنغام التى أخرجت من القلوب خفاياها وأسرارها .. وبعثرتها . وأوقدت فيها مشاعلها .

ظل مصباح يلاعب مزماره والعينان معه مسافرتان حالمتان .. والقلب فى نشوة معتقة بخمر السنين وبينما مصباح شارد مع أنغامه إذ لمح البدوية الحسناء وحشية النظرات .. رآها وقد تقرفصت ولبست كل ثياب الهوى .. ووجهها ينطق حباً ووصالاً ومودة .. وحولها جلست بنات مثلها فى بهائها ووجدها . لم يصدق مصباح ما يرى .. أدخل فى عينيه تألقات النظر .. رآها هى هى .. بدمها ولحمها وشحمها .. بثيابها التى فى لون الأطياف كلها .

انساب النغم أكثر بهاءً .. وحباً وعشقاً . أخرج مصباح قلبه من بين

ضلوعه وقذف به إليها . وحكى لها حكاياته وباح لها بكل ما فى حناياه بين دمه ولحمه وعظمه وسال الزبد على شفتيه .. وانثالت الدموع من عينيه فتندى الوجه بكل قطرات الوجد . لقد عصف مصباح بقلوب الجميع وسرق منهم أعراسهن . وما أن انتهى مصباح حتى قال صفوان وهو يخاطب جموع الحاضرين :

- لا غناء بعد الآن .. بعد أن أشجانا مصباح بكل هذا البوح .

بدأ الناس فى الانصراف إلى دورهم أما مصباح فقد اندفع يبحث عن تلك البدوية الحسناء الوحشية النظرات راح يبحث عنها فى الوفود الآتية من القرى والكفور والنجوع .. فلم يعثر لها على أى أثر .. انطلق إلى الحقول النائمة فى ظلمة الليل .. جرى بين العشب والماء والشجر لم يسمع سوى خرير الماء وهو ينساب برفق وأصوات كائنات الليل الساجية .. نظر إلى السماء .. وراح يحاور النجوم الساهرة .

[١٨]

طار طائر وارتفع وكما طار لم يقع بل صار فيضاً من قبض الريح ، بهر صفوان هذا الطائر الجامح الباهر الذى فى لون النور ، ذكره بحكايات مرت ومازالت تحوم حول منارات الشمس ، وتسكن فى بيوت القمر . قال وهو مترع بالنشوة :

- مازال عرس أعراس قريتنا يا عبد الرشيد منقوشاً فى رأسى .. ولا ينفض عن مخيلتى رغم تلك السنين التى مرت .

رد عبد الرشيد بتأثر شديد :

- وأنا مثلك تماماً .. أنا مازلت أحيا أحداث تلك الليلة .. كلما خلوت بنفسى أتذكرها . وأسترجع كل تفاصيلها .

وبلع عبد الرشيد ريقه وعاد يقول وقد سرت فى نفسه مشاعر متباينة :

- وأنجبت الفتيات البنين والبنات . وتشابكت أوصال الناس بالأنساب والأصهار .

رد صفوان وغصة فى حلقه :

-ولكنه وصال غير ذلك الوصال الذى كنا نبتغيه .

تساءل عبد الرشيد :

- ماذا تقصد بذلك .

- أقصد أن الفتيان قد فقدوا بهاء ما كانوا فيه .. وما كنا نحن أيضاً فيه من قبل .

- وضح .. فسر .. لا أفهم ماذا تقصد ؟.

- أنت تفهم وتعرف . إذا فكرت وتدبرت .

- أهي ألغاز يا سيد صفوان .. ؟

- ياليتها كانت ذلك .. ولكنها أمور واضحة وضوح الشمس فى الأفق.

فكر عبد الرشيد ، اقتنص من عقله كل ما فيه ثم قال بصوت كلفيح النار :

-صدقت يا سيد صفوان .. إنها بالفعل أمور واضحة وضوح الشمس فى الأفق وزفر عبد الرشيد وقال بمرارة :

- أتقصد ذلك الرجل الذى أتى إلى قريتنا بعد الخروج العظيم .. ودخلها فى غفلة منا .

- بالضبط هذا ما أقصده ..لقد دخل ذلك الرجل بحيل وأكاذيب كثيرة .. زين بها أموراً عديدة لم تكن فى الأصل موجودة فى قريتنا .

- هذا بالفعل هو ما حدث .. لقد تركناه لأننا كنا نحسن الظن به .

- وعندما تركناه وأحسنا الظن به .. ولم نفهمه .. فعل كل ما يبتغيه .

نفض عبد الرشيد عن نفسه زخماً من الأسى وقال :

- والعجيب في هذا الرجل.. أنه أسكر الناس بأحاديثه المعسولة.. وأخرج من صدور الناس.. كل الغرائز.. والرغبات.. وزينها لهم. فقبلوها.. وفعلوها عن اقتناع.. ورضا خاطر. وإذا ما كشفنا لهم ذلك.. ووضحناه لهم تركونا .. وأداروا لنا ظهورهم .. وأصموا عنا آذانهم .

عاود صفوان التحليق والتحديق فيما حوله في الحقول الخضراء.. والأشجار الفارهة والنخيل الباسقات.. ولمح سرباً من الطيور يتجه إلى قريته.. سافرت نظراته معه. زفر زفرة مرة كالحة. وقال في غضب محموم.

- خسئت يا سعدون .. أيها الغريب القبيح .. الوافد إلى قريتنا الزاهرة العامرة .

[١٩]

طفق علوان يصلح من هندامه ، ويلبس إشارته ورموزه . وأتى بقارورة من العطر وسكب على رأسه ووجهه وعنقه وملابسه قطرات من مائه المعطر ، ثم ذهب إلى المرآة وحدق في نفسه طويلاً . سرته صورته الموشاة بالألوان الزاعقة .. تنفس منتفخ الأوداج .. وهم بالخروج وقبل أن يخرج وقفت زوجه أمامه وقالت :

- أتذهب إلى ذلك الرجل كل صباح ومساء ؟ أزاحها عن طريقه ، تصدت له ثانية. واسترسلت تقول منفعلة :

- أريد أن أعرف ماذا يريد هذا الرجل منكم.. وما الذي تفعلونه أنتم معه؟

فارت الدماء في وجهه فرد غاضباً :

- ولماذا تعرفين .. ؟ لقد ملأت لك البيت بكل شيء .

- أشياء كرهتها .. ولا أرتاح لها .. أشعر بأنها تحرق جسمي ..

لأنني لا أعرف من أين أتيت بها ؟

وتنهدت ومضت تقول بأسى :

- كنت ألبس من قبل الملابس التي يرتاح لها جسمي .. وآكل ما تشتهيه نفسي وأخرج إلى البراح .. وأشم رائحة الزروع والبساتين .. والآن قد نسيت كل شيء يا علوان .. لقد جفت عروق الأرض يا رجل.

دفعها علوان عن طريقة .. فلاحقته بكلمات موجعة :

- أين كتل الحديد التي كانت في ساعديك .. ؟ أين وجهك اللامع بحرارة الشمس . ؟ أين كلامك العذب . ؟

تسلقت هذه الكلمات أذني علوان .. واحتوته عندما صافح براح الأرض والنهر . عبر طيفها في رأسه .. عندما استرجع بها الخروج العظيم الذى ولى ومضى .

صحا بصيص من نور هذا اليوم الباهر ودار ومار وحوم حول رأسه .. ولكنه سرعان ما توارى واختفى . " الآن ينسكب المال من بين يديك يا علوان .. يأتيك من كل جانب .. وتجسدت في مخيلته .. ملابس الثراء الباهرة .. وخز الحرير .. والذهب الأصفر المتألق . والكلمات الناعمة المنمقة المعطرة . المزركشة التي يتحدث بها سعدون السابح في بحار الضوء .. الهائم في خمر العشق .

لماذا لا تحياها يا علوان .. .. بعد أن ركبنا الهول .. نحن قد خرجنا وانتصرنا وعدنا وانتهى الأمر . والآن قد جاء إلينا ركب جديد .. أرى فيه أسمارى وأنغامى وحللى المرصعة " واندفع علوان يسرع الخطى إلى سعدون الذى وقف يدعوه من الشاطئ الآخر من النهر ، وبجواره الليثي الذى لبس وتزين وتعطر مثله تماماً وانثال حديثه بين الناس منمقاً مرشقاً . جمعهم سعدون حوله . وأخذ يعلق ويعقب ويفند ويسرد الحديث

المغموس بخمر العشق .. والمتعالى ببريق النفس .. وقبل أن يهم الجمع بمغادرة المكان ، نادى الخضرى على علوان ذهب إليه علوان . فى تأفف ، قال الخضرى وهو يشده إليه :

– إلى أين ذاهب .. يا ولدى علوان ؟

– ....

– دعك من هذا الرجل .. أتعرف من أين جاء هذا الرجل ..؟!

– اسكت يا رجل لا تقل هذا .. دعنى لشأنى أنا حر أفعل ما أريد .

وقبل أن ينهى الخضرى حديثه .. كان علوان قد تركه وانصرف .

***

انتاب الخضرى حزن ثقيل، جلس تحت نخلة وارفة الظل ، إنه مازال يتذكرها ويتذكر عمرها ، فهى من عمره، لقد زرعها أبوه يوم أن أنجبه، وكان يقول له وهو مأخوذ العينين: هذه النخلة هى شقيقتك يا خضرى.. لأننى غرستها يوم دخولك إلى هذه الدنيا . وظل أبوه يرويها ويرعاها ويجلب لها كل ما تحتاج إليه حتى كبرت النخلة وتسلقت قلب الفضاء.. وفى اليوم الذى تبدت من نحرها عناقيد بلحها .. مات أبوك يا خضرى تحت ظلها الظليل . وجاء خلق كثيرون.. وأخذوا أبوك من تحتها .. وكان البعض منهم يوغل فى الحديث عن ذلك اليوم يقولون: إنهم سمعوا بكاء النخلة وأنينها يوم حملوا أباك من تحتها . كيف تنسى تلك الأيام الودودة يا خضرى ؟ " ورمى الخضرى نظراته بعيداً وراح يلتقط من هنا وهناك أشياءً وآمالاً.. وأحلاماً عزيزة.. وأفراحاً وأتراحاً. وجعل الخضرى يلملم هذا البوح كله الذى خرج من صدره ورأسه ولما اشتد عليه ذاك الزخم الزاخر. أتى إلى فأسه.. وقبض عليه بيدين قويتين وراح يشق الأرض السمراء التى يلمع تبرها تحت

وهج الشمس. يأتى إلى الماء ويطلقه.. ينساب الماء فى حنايا الأرض فيمتزج بالماء والتراب.. وتأتى طيور أبو قردان التى فى لون ندوف القطن. فيتألق الأبيض والأسمر.. فيصير الكون كله فى بهاء.

ويحدق الخضرى فى ذلك .. ويحملق، فتغرد الابتسامة على وجهه.. وتطرح ياقوتها وجواهرها . يخلع الخضرى ساقيه المغروستين فى قلب الطين .. ويخرج إلى الشاطئ ويستريح .. ويتجرع قطرات من الماء السلاف ثم ينام .

ويأتيه فى منامه من يقول :

«ليس علوان والخضرى الذين أتوا إلى سعدون بل غيرهم .. كثيرون.. كثيرون .. حتى أزواج بناتك يا خضرى قد تركوك وحدك فى الأرض .. وكنت تظن أنهم سيساعدونك.. ويرحموا شيخوختك.. ويدفعوا عنك هذا العناء» . ويصحو الخضرى من نومه ليرى الأرض من أمامه وقد اتسعت وترامت . فيأخذ فأسه على كتفه .. ويسحب من خلفه بقرته الصفراء الفاقع لونها .. وينصرف إلى قريته.. ويسترجع وهو سائر على الطريق تلك السنين التى مرت .. فالطريق آنذاك كان لا يكف عن صهيل الخيول .. وخوار البقر وثغاء الأغنام وكان يعج بزعيق الرجال وهمهمات الفتيان .. وأحاديث الشيوخ وهمسات النساء . والآن لا تجد يا خضرى أمامك إلا هذا الصمت .. وقليلاً من الرجال على مسافات متباعدة متنافرة . تدمع عيناه ويدخل قريته مع غبشة الشفق . ويزعق فى أعماقه نداء حبيس .. يفك عنه فى تلك اللحظة قيوده . لقد تذكر شيخ المسجد وهو يقول : والشفق يا عباد الله الصالحين هو ذاك الضوء الخافت الساجى الذى يفصل ما بين النور والظلام . ففى النهار حركة وكد وكدح وصحوة ويقظة كسب الرزق

من أجل لقمة العيش الشريف ، وفى الليل خشوع وسكون وسكينة وراحة للنفس والقلب .

ويخفق قلب الخضرى بين جنبيه .. وهو يعاين تفاصيل ما بين النهار والليل فالشفق هو الفاصل الناهى ما بين هذا وذاك . ويدخل الخضري داره، ويعطى وثاق بقرته إلى زوجه . ويجلس ويستريح على حُصيره القديم الذى يستريح عليها جسده .

[٢٠]

" يا خيول قريتى .. فكى القيود عنك .. ولا تخافى .. ولا تخافى " راح مصباح يردد هذه الكلمات بصوت آس حزين ممتلئ بالشجن ، وهو يعبر المسالك والدروب والماء والعشب والطين . ويحدق فى الطيور التى ترصع وجه السماء .. وفى النخيل الباسقات وهى تعانق قلب الفضاء .. ثم يرنو إلى الأفق الملثم بدثار الخريف .. وإلى رموش الشمس وهى ترض أجفانها عندما تشتد عليها ضربات الرياح . ظل يسير ويسير حتى كلت قدماه .. ولما أخذه الشجن .. والتعب .. تذكر نايه السحرى فأخرجه من حضن جلبابه .. ولعب بأصابعه على ثقوبه . انساب النغم . جعل مصباح يدفع بالأنغام إلى رحابة الكون .. بين الأرض والسماء . يخاطب نفسه حزيناً :

" كنت يا مصباح .. تطلق الأنغام من قبل .. فيندفع إليك الناس من كل مكان .. تأتى إليك الصبيات الحسان .. ويطلقن ما فى قلوبهن من آهات الحب والوجد والعشق .. وتتوهج قلوبهن بالسعادة وتفيض وجوههن بالنعيم .. والآن .. أنت تغنى وتغنى فلا تجد إلا صدى الرياح.. ونواح اليمام .. وهو غائص فى بطون الشجر " .

ظل مصباح يسير .. ويسير حتى بعد كثيراً عن قريته . التى صارت

كحبة الخردل بين بسراويل الخريف الرمادية . اندفع مصباح إلى الأمام إلى البراح الرهيب وكفيض من قبض الريح جاءته البدوية الحسناء الوحشية النظرات فى صورة غير تلك التى كانت تأتيه عليها من قبل دقق النظر فى ملامحها طويلا .

أين يا مصباح حبات الخرز التى كانت فى لون الألوان كلها ؟ أين العزم وقوة اليقين ؟ أين النضارة والبهاء ؟ أين هذا كله يا مصباح " رمت البدوية فيضاً من نظراتها وقالت بصوت خافت :

- لقد أضناك البوح يا مصباح .

- أجل .

سكتت البدوية هنيهة ثم عادت تقول فى أسى :

- ول متجد إلا قبر همام . . تذهب لتزوره ما بين الحين والحين .

تقلص وجه مصباح أملاً وشردت عيناه فكراً :

مضت البدوية تقول وهى تتوجع :

- لقد نسيه الناس . .يا مصباح .

- ليس كل الناس .

- يتذكره القليلون . . يامصباح . . مثل السيد صفوان الذى يجهد نفسه بقراءة سيرة خاله للناس وعبد الرشيد الذى لم يكف عن تأصيل حكاياته وقوت القلوب التى لم تعد تفارق عباءة وعصا أخيها الذى رحل. وابنته روح الفؤاد التى حفر الحزن وشمه فى كل ملامحها وحفيده زهران الغاضب الثائر .

وزفرت زفرة مرة كالحة ومضت تقول :

- وقليل من الشيوخ والرجال والفتيات والفتيان. ثم تساءلت ساخرة:

- ولكن . . ماذا يفعل هؤلاء . . فى عتمة الطريق الذى يحيط بهم من كل جانب ؟

أوجعت هذه الكلمات مصباح .. وكادت تسحب روحه من جسده فقال وهو يركز عينيه على وجهها الممتلئ بكل المعانى :

- أتعرفين كل ذلك .. ؟

- وأكثر منه .

- وما هو الخلاص . ؟

- عند المنتهى .

- وما هو المنتهى ؟

- أن نعرف ما انتهى إليه المنتهى .

فغر مصباح فاه وقال وهو يشحذ كل ما فى عقله من أفكار :

- لا أفهم شيئاً .

قالت برنة حزن :

- سوف تفهم فى الأيام القادمة .

- أنا الآن فى أشد الحاجة إليك .

ردت بصوت متصدع :

- لن ترانى بعد اليوم يا مصباح .

وضع مصباح رأسه بين يديه .. وأنشأ يقول وهو يدور حول نفسه :

- أنا فى أشد الحاجة إليك .

وما أن رفع يديه وانتبه إلى ما حوله حتى توارت البدوية عنه تماماً جعل يلتفت يمنه ويسرة.. ويصرخ وينادى عليها فلم يأته إلا الصمت الرهيب.

غرق مصباح فى حزن عميق ، ولبس ثوب الحداد ، جلس تحت شجرة عراها الخريف من ثوبها الزاهر ، سمع غراباً ينعق نعيقاً كئيباً ، هب من مكانه واقفاً وقذف الغراب بحجر ، طار الغراب من الشجرة وحط على أخرى وعاد ينعق من جديد . ضربه ثانية . جاء الغراب ووقف أمامه وأخذ ينعق بصوت أكثر كآبة ووحشة . لبس الخوف

مصباحاً . حملق في البراح الممتلئ بالعشب والكلأ والطين والماء . ازداد مصباح خوفاً . وبعدها لملم مصباح نفسه وخرج مما هو فيه وركب الطريق . وكانت الشمس تخلع عنها ثوب البهاء .. وتتهيأ للدخول في نفق الظلام ، والريح تزفر زفيراً موحشاً . أسرع مصباح الخطى . وقد لبست رأسه فكرة جسورة زاد توقدها . واشتعلت

" لم لا تنفذها يا مصباح وقد صار كل شيء إلى المنتهى .. إنك يا مصباح لن تخرج من دائرة هذا الحصار إلا بعد هذا المنتهى .. هذا ما قالته لك البدوية الحسناء وهي صادقة فيما تقول وهي لا تقول إلا الصواب يا مصباح " . وهبط الظلام يرسى على الكون ستائرة السوداء .

***

دخل مصباح قريته .. شدته حظيرة الخيول .. فذهب إليها .. فهو لم يسمع فيها إلا الدبيب الخافت المنكسر .. توارى الصهيل الجامح .. دخلت الحوافر العاصفة في مرابض أغلالها . ذهب إلى الحصان الأشهب ولامس شعره بيد مرتعشة . دفعه الحصان برأسه . عاود اللمس ثانية بيد عطوفة حانية . انتفض الحصان غضباً . تقهقر مصباح إلى الخلف وجعل يعاين الخيول بنظرات حزينة آسية . رأى أجسامها قد شح منها اللحم .. وتغضن فيها الجلد وسيقانها قد تقوست وحوافرها قد خرت . ترك مصباح حظيرة الخيول وقد أصابه هم وغم .

وعرج إلى بيت ابنته خضراء العين التي صارت زوجة ولها أولادها وهو في حالة يرثى لها .. وما أن رأى مصباح ابنته حتى أجهش بالبكاء والنحيب .. أمسكت ابنته بيده ودعته إلى الدخول . جلس بجوارها .. وراح يحدثها .. حديثاً حزيناً آسياً .. وهي تستقبل ما يقول بقلب موجع . انتهى حديثه معها وهو أكثر حزناً وألماً .. أخذ يقبل رأسها .. ويربت على كتفها وتركها وانصرف إلى منزله .. وفي هدوء أخذ يلم

أشياءه، عبأ ملابسه فى صرة .. وفى الأخرى بعض أرغفة من الخبز .. وقطع من الجبن التى من ضروع نعاجه التى يحبها .. ألقى على زوجه التى تغط فى نوم عميق نظرات ممتلئة بالحزن والعذاب وفارقت عيناه عينيها . وقبل أن يهم بالخروج سمع ثغاء كبشه العفى القوى . التفت وراءه فرآه خلفه يمسح برأسه على ظهره .

ربت مصباح على رأسه . التصق به الكبش القوى العفى . حاول التخلص منه غير أن الكبش اعترضه ثانية والتصق بساقيه . دفع مصباح الكبش أمامه وقرر أن يأخذه معه . وقبل أن يغادر مصباح المنزل كانت نعجة الكبش العفى القوى قد جرت إليه والتصقت به فدفع الأثنين أمامه وخرج .

وفى البراح طالع مصباح الليل المتأنق بحبات النجوم الساهرة ، أخذته النجوم إلى مسارات الكون الرحيب ، زعق الهاتف الداهى حوم حول رأسه .. جاءته كلمات البدوية الحسناء .. اكتوى بها وهى ترشقه بكلماتها .. بأن المنتهى هو نهاية المنتهى .. سبرت هذه الكلمات أغواره ، وسرت بين لحمه وعظمه . انطفأ الحلم الغائب وتشرنق فى عذاباته وآهاته .. بعد أن صار البوح عميقاً فى أغواره .

ثم سار مصباح إلى اللامنتهى .

[٢١]

طارت يمامة رهيفة ، وحامت حول بيت مصباح . رفرفت بجناحيها ثم دخلت فى قلب عريش شجرة ست الحسن التى تحضن واجهة الدار . وبعد أن استقرت اليمامة واطمأنت راحت تنوح نوحاً شفيفاً آسياً .

صحت زوج مصباح من نومها وتحسست موضع مصباح فلم تجده . قامت على عجل وأخذت تبحث عنه فى أنحاء المنزل فلم تعثر له على

أى أثر . فتحت الباب وجرت إلى بيت ابنتها . دقته وعيناها تسيلان بالدموع ، فتحت ابنتها الدار . سألتها أمها فى لهفة :

– أين أبوك يا ابنتى . ؟

اتسعت عينا خضراء العينين اخضراراً .. وانحبس لسانها بين شفتيها . صرخت أمها صرخة مدوية وجرت فجرت ابنتها فى إثرها . سمعت خضراء العينين اليمامة الرهيفة تنوح نوحاً حزيناً آسياً ، انقبض قلبها ، وتقلص وجهها وانتابها خوف وفزع . فهذه اليمامة التى بين أغصان شجرة ست الحسن هي الشجرة التى زرعها أبوها بيديه وكان يجلس تحت ظلها ، ويرسل ترانيم مزماره ، وعندما كان البوح يأخذه إلى مداه كانت تأتى هذه اليمامة وتشاركه فى ذلك البوح الشفيف .. صرخت خضراء العينين وصار صراخها نحيباً ممتزجاً بنحيب أمها . سرى الصوتان الحزينان المترعين بالحزن فى القرية كلها ، خرجت أغنام مصباح من حظيرتها وتناثرت فى الشوارع والحوارى ، راحت الكباش الصغيرة تبحث عن كبيرها . حدقت زوج مصباح فى الأغنام فلم تجد الكبش الكبير المغزول القرنين .. أرسلت المرأة صرخة مشروخة وجعلت تقول وهى تئن وتبكى :

– تأكد لى الآن أن مصباحاً قد خرج ولم يعد . فالكبش الكبير الذى لا يفارقه قد خرج أيضا معه . وخرجت معه النعجة الأسيرة . وطفقت تضرب صدرها بقبضات يدها .. وتبكى .. وتصيح وتنتحب . تجمعت من حولها نساء القرية وفتياتها ورحن يبكين وينتحبن مثلها .

***

اندفعت خضراء العينين إلى الحقول الخضراء . جرت بين غدران الماء.. وفوق الجسور والدروب وأخذت تزعق وتصرخ وتصيح : «أين أنت يا أبى؟ تكلم .. أين أنغام مزمارك ؟ حدثنى بترانيمك " فلا يأتيها

إلا صوت الريح .. وشقشقة العصافير في بطون الشجر . حدقت خضراء العينين في وجه الأفق وسافرت نظراتها بعيداً .. إلى ياقوتة الشمس وهي تستحم في بحيرة اللهب . تلظى قلبها بنار العذاب .. وصار كقطعة من الجمر .. أرخت خضراء العينين .. جفنيها .. هنيهة ثم عادت بها إلى الأفق ..

طالعت غابة من باسقات النخيل تلمع رءوسها بجلال النور. خاطبت نفسها قال لي أبي من قبل: هناك في ذاك البراح.. بين الزروع.. والماء والبهاء.. هنالك يا ابنتي يسكن قلبي بين ضلوع تلك الأشياء، وإذا اشتد بي الحزن والأسى. أذهب إلى هناك فأجد نفسي بين هذا.. وذاك قد تعطرت بكل هذا النعيم.. فتشفى جراحي ويروى ظمأى .

أنشأت خضراء العينين تتقصى ذلك السر المدفون في خزائن الأسرار.. المغمور في قاع التيه .. المغزول ببهاء الألوان كلها . وبعد أن أعياها التعب جلست تحت شجرة صفصاف تمد ضفائرها على وجه الماء، ووضعت رأسها بين كفيها .. وراحت تلتقط من الزمان الذي ولى حكايات أبيها . وهو يغني للأرض والسماء .. والورد والزهر والشجر والماء والنهر والسواقي والغدران . وللناس .. والشيوخ والرجال .. للنساء والفتيات .. وللفتية والصبية والأطفال . " كم غنى أبوك يا خضراء .. لكل هذا ولكل هولاء كان مزماره يبوح بما في صدره من آهات وآمال وأحلام . كانت الأنغام .. تسرى في حناياك بين دمك ولحمك وعظمك .. فيخرج ما في ذاتك .. ويمتزج بهذا النغم .. ويسافر إلى الأماني الجميلة " . وتتنهد خضراء العينين .. وتسيل عيناها أدمعاً .. وتنسكب .. قطرات دموعها في قلب الماء فيتألق الماء.. ويصير صافياً رقراقاً .. وترى فيه صورة جميلة فريدة من نوعها.. ترى وجها عذباً.. وثوباً في لون الألوان كلها ويتألق ما تراه

ويزهو .. ويكاد يخرج من الماء إليها . فتنهض خضراء العينين خائفة فزعة جزعة وتجرى على الطريق إلى قريتها .

دخلت خضراء العينين قريتها .. التى غصت بالرجال والفتيان والشيوخ والنساء . الكل قد احتشد .. منهم من ذهب وعاد .. وذهب ولم يعد . كل هذا الجمع يبحث أمر الذى غاب واختفى . وما أن رأت أم خضراء العينين ابنتها حتى اندفعت إليها .. وتلقتها بين ذراعيها .. وراحت تبكى وتنتحب .

***

ظلت القرية تلبس ثوبها المسربل فى أحزان غياب مصباح . وصفوان قد طارده ذاك المجهول الذى حوم عليه . وسرى بين ضلوعه وحناياه . ويأتى عبد الرشيد إلى صفوان ويقول له فى ذهول :

– لا أتصور أن تعيش القرية بدون مصباح. ويرد صفوان وقد اشتد عليه الأسى :

– وأنا مثلك لا أتصور هذا الأمر ولا أصدقه ويصير بكاء ونحيب النساء كلفيح النار يسرى فى الشرايين .. والدماء .. حتى الخيول فى داخل حظيرتها . جعلت ترخى جفونها وترسل قطرات دموعها . ويجىء أهل القرى والكفور والنجوع المجاورة .. ويبحثون مع أهل القرية عن مصباح الذى غاب ولم يعد .. ويأتى زهران بن صفوان ويصرخ فى جموع أهل قريته . وأبناء القرى والكفور والنجوع المجاورة :

– أنا أعرف سر غياب مصباح . الذى خرج ولم يعد .

فسأله الناس فى لهفة :

– وما هو هذا السر يا زهران ؟

يظل زهران يردد ما قال.. وكلما قال كلما هدر صوته كالريح العاصفة.

مع ومضة الفجر .. وفيض النور وهو يروى ظمأ الصبح بالبهاء . نطق السكون الجاثم على صدر الكون بصهيل زاعق صاخب . لقد تحركت الخيول الجامحة من مرابضها كسرت القيود والأغلال اقتلعت الأوتاد من حشايا الأرض . اندفعت بقوة كالريح العاصفة وانطلقت إلى براح الكون كالطوفان الجامح .. تجتاح المسالك والدروب .. وتكتسح من أمامها عورات الطريق . استنفر هذا المشهد أهل القرية جميعهم ، أخرجهم من مراقدهم ، ودفعهم إلى قبضة الخيول الغاضبة . إلا أن النار المستعرة فى صدور الخيول والريح السارية فى الحوافر العاصفة كانت قد أخذت الخيول إلى أقصى مداها . لقد اشتاقت الخيول إلى البراح الرحيب .. وإلى الصولات والجولات ..والجموح العظيم .

امتزج الأشهب بالأصهب. والذى في لون بهاء النهر.. والذى فى سمرة الأرض. خرج كل هذا الدفع القوى الصاخب إلى المبتغى الذى يبتغيه .

خرجت الخيول المسومة .. المكللة بدثار الفخار والمجد من أيدى الرجال، اندفعت إلى البراح الرهيب .. إلى الأرض والماء والنهر إلى الدروب المجيدة الأسيرة . أما صفوان فأمام هذا الحدث قد راح .. يذرع الأرض ويرتاد النواحى وقلبه مسجون بين حناياه . سالت عيناه أدمعا وانتفض الزخم المحزون فى أعماقه وأنشأ يرسم على وجهه لوحات ما يرى . نادى وصرخ وزعق :

- أيتها الخيول الغاضبة عودى إلينا . عودى إلى مرابضك الدافئة .. عودى إلى قريتك الحبيبة تعالى إلى القلوب .. إنها ترى فيك مبتغاها .. فلا يسمع إلا صدى الصهيل الجامح .. والريح العاصفة . دار .. وسار.. وأجهده التعب . وفجأة سمع صهيل حصانه الأشهب جرى

نحوه ولاحقت نظراته رؤياه عند مسارات الأفق .. وبعد قليل جاء إليه الصهيل . اقترب ، وما أن اقترب منه وصار بين مرمى عينيه حتى رأى ابنه زهران .. يمتطي صهوة حصانه الأشهب وقد عصب رأسه بعمامة في لون صفاء السماء ولبس سروالاً في لون بهاء الأرض . شب صفوان على قدميه وهو لا يصدق أن الذى يراه أمامه هو حصانه وعلى ظهره ابنه زهران ، فحدق فيهما في حب ولهفة وقال وهو يحترق :

- أعدت إلينا يا زهران ومعك الأشهب ؟

أجاب زهران بنظرات كجمرات النار :

- لا يأبى أنا لن أعود .. لن أعود إلا ومعى كل الخيول التى خرجت.

هرب النور من عينى صفوان وراح ينادى ابنه ، غير أن زهران كان قد انطلق كالريح العاصفة . لم يصدق صفوان ما حدث ، راح يمسح بكفه عينيه ويعاود التحديق في الأفق . فلا يعثر له على أى أثر . هبط صفوان بكتلة جسمه على الأرض وبسط ساقيه .. وثارت في رأسه أفكار شتى .. واحتدم أوارها .. وخرجت المواجع من توابيتها .. ولم يصح صفوان من عقله الشارد إلا على نعيق غراب كالح اللون .. راح ينعق وهو يغوص بمنقاره في قلب الطين الغائص في نتن الماء . انتصب صفوان واقفاً ، وأطلق سهام نظراته إلى الغراب وقذفه بحجر وقفل عائداً إلى قريته تسيطر عليه مشاعر مفعمة بالأسى .

لاحت قريته من على بعد مدفونة في ضلوع الأفق تنزف حناياها ظلالاً شاحبة وتضرب نواحيها ريح لاهثة . اكتوى صفوان بنار الألم .. وهو يدخل قريته .. وكان الناس فيها قد تسربلوا في ظلال الحدث الجلل ، وصاروا عيوناً باكية ، وقلوباً متوجعة ، وأنفساً شاردة .. جماعات جماعات ، وراحوا يمطرونه بتساؤلات كثيرة حائرة .

فينظر إليهم في صمت .. ولا يجد ما يرد به عليهم .

سكن الحزن مكاحل عينى روح الفؤاد ، وصارت لونا من ألوان الورد الذى أذبل وريقاته طول الظمأ . تخرج كل صباح ومساء إلى الأرض البراح تترقب بقلب ملهوف ، ووجه مثلوم عودة ابنها زهران الذى خرج ولم يعد . وتتلمس أيضاً أخبار زوجها الذى يخرج مع صحوة الشمس ولا يعود إلا مع هبوط الظلام ، باحثاً عن ابنه المسربل فى طيات الغيب . وفى غروب ذلك اليوم عندما لبس وشاحه وأرسى على الكون مراسيم أوبته ، عاد صفوان هذه المرة وهو أكثر جهداً وتعباً . لقد أضناه البحث الدائر فى سراديب سر الحكاية . عاد بوجه مكدود وبلحية قد طالت واستطالت . استقبلتة زوجه روح الفؤاد بروح منكسرة .. لم تدر ماذا تقول ؟ وهى ترى زوجها قد صار حطاماً ، غير أن صفوان قرأ ما يجول فى أعماقها فقال بصوت خافت حزين :

- الصبر يا أم زهران .

فتحت هذه الكلمة " أم زهران " لها مفاتيح الأمل .. فزهران الآن قد أصبح اسماً لاسمها .. نفذت الكلمة إلى صدرها وأثارت فى حناياها حلماً جميلاً .. فقالت وهى تأخذه من يده وتدعوه الى الجلوس :

- والصبر لك أيضا يا أبو زهران .

أثلجت نفس الكمة صدر صفوان .. فجلس مسترخياً على مقعده .. وأراح عليه جسمه المكدود .. ثم غفت عيناه على مشاهد أسفاره وترحاله، استرجع فى ذاكرته تلك السنوات التى ولت وهو يبحث فيها عن ابنه زهران .. بين الأرض والماء والناس . وفى ذلك الخضم رأى دنيا غير الدنيا التى كان يحياها من قبل . وخلقاً لم يتعود أن يراهم .. فالناس قد صاروا غير ما كانوا . ضاعت منهم أشياء كثيرة وهن النبض

فى القلوب .. وشحبت إشراقات الوجوه وصحت العيون علي مراتع الغرائز والشهوات وتراسلت الألسن بأحاديث الهمز واللمز وأصبح الصخب هو صخب النزوات المجنونة التى لا تعرف حدوداً لها . قد جفت عروق الأرض وتقلصت بساتين الزهر والورد.. وتحوصلت الفاكهة من كل صنف ونوع.. بكى صفوان وسحت الدموع من عينيه وشحب وجهه البهى العفى.. وغاب فى غياهب الغيب اندفعت أمه قوت القلوب.. إليه جزعة فزعة.. فهو يغيب طويلاً .. رأى فيها ما يراه فى نفسه . هب واقفاً .. شب على قدميه .. وقد عاودته بعض من فتوته المتداعية وكاد أن يرفع أمه إلى كتفيه . كابدت أمه ما يكابده .. جرت إليها ريم وعبلة بعد أن صارتا زوجتين تنعمان بالبنت والولد . والتفت الأسرة حول بعضها البعض . وأدفأت القلوب القلوب .. وجرت الدماء فى الدماء ، وسرى فيهم عطر من عبق الأيام التى مضت وولت . جاءت روح الفؤاد.. وقد لاح فى وجهها نور من بهاء النفس.. ساعة الصفاء.. جاءت وأحضرت لهم الطعام .. فأكلوا هنيئاً .. وشربوا مريئاً .

***

دخلت قوت القلوب إلى حجرتها واحتواها الليل الرهيب .. جلست .. وهامت وفكرت .. فصحا فى أعماقها السر المكنون فى حناياها .. خلع عنها رداءه .. زعق فيها نداء عارم .. حرك كل ما فيها. ذهبت إلى خزينة أسرار حكاياتها المكنونة فى أعماق النفس وأخرجت منها بردة وبرية جميلة ، محلاة بوهج القصب .. بسطت البردة أمامها وأخذت تحدق فيها طويلاً ..

غاصت فيها بكل نظراتها . انفتح لها درب طويل .. طويل وشدها إلى بواكير السنين التى مرت وألبستها ثوب البهاء .. أمسكت البردة بيد مرتعشة .. ولفت بها جسمها الواهن النحيل، تدفق الدم حاراً فى

عروقها .. ومس شغاف قلبها .. صحت في وجهها المتغضن ابتسامة عريضة . تذكرت حكاية الحكاية . " فالبردة يا قوت القلوب .. هي سرك الباقي .. إنها بردة أبيك التي غزل صوفها من جمله الودود ساعة البراح . وكان إذا لبسها يكون بها الوجاهة والوسامة كلها . واسترجعت طيف أبيها وهو في شبابه الفتي العفي عندما كان يركب حصانه .. ويسابق به الريح .. والبردة ترفرف على جانبيه .. فيسرق بهذا المشهد الرائع النظرات من عيون الرجال والنساء . راحت قوت القلوب تدفن جسمها النحيل في البردة فتشعر بخدر دافئ لذيذ . ثم تمد نظراتها ثانية إلى خزينة ما تقتنيه وتسحب منها عصا جميلة منمقة مشذبة مهذبة . وهذه أيضا يا قوت القلوب هي عصا أبيك ورثها أبوك عن أبيه . وما أن أخذها الماضي إلى مداه .. حتى ارتجفت كل أوصالها .. وغمرها إحساس دافق عارم . " ولقد كان أخوك همام يا قوت القلوب هو الوريث الأول للبردة والعصا .. وصرت أنت من بعده الوريث لتلك البردة .. وهذه العصا .. صرت الوريث .. بعد الوريث " . وخرج طيف همام من رأسها .. وحوم في مخيلتها . صار وهجاً صاخباً .. يثور .. .

ويركب حصانه الأصهب ويردد ويقول ساعة الخروج العظيم : الثأر .. الثأر .. الثأر يا رجال قريتنا الشرفاء . « خرج همام يا قوت القلوب .. ولم يعد » . ويهتف كل ما فيها لهفي عليك يا همام .. لهفي عليك يا شقيقي الحبيب وينثال من عينيها سيل من الدموع وتصرخ من أعماقها . أين الرجال الآن يا همام ؟لقد صاروا غير ما كانوا .. لقد صاروا غير ما كانوا .

فجأة يصحو في قوت القلوب سر الغيب القادم .. ويلبسها كل أثوابه .. ويؤنقها ببهاء الزيارة ويهيؤها للقاء الآتي .فتأخذ قوت القلوب عصاها .. وتخرج وهي ملفوفة في بردة أبيها وأخيها ..

وتصعد إلى جمال الصمت .. وعظمة الخشوع .. فيصمت كل ما فيها .. وتنظر إلى السماء .. فترى إشراقات القمر .. فتهيم فى بهاء الكون .. وتسبح فيه بكل ما فيها . ثم تضم العصا بجوار قلبها .. ويدخل كل ما فيها فى بردتها . ثم يصير بصرها من حديد .

[٢٤]

تكلم يا زوجى الحبيب .. أتظل صامتاً هذا الصمت الطويل ؟ أتظل على هذا الحال منذ أن رحلت عنا عمتى العزيزة قوت القلوب ؟ الكل تركونا يا صفوان .. أبى همام قد لاقى ربه ، وقرة عينى زهران خرج ولم يعد . الآن لم يبق لى إلا أنت يا صفوان .. وأنت كل شيء .. انهمر سيل من الدموع على خديها .. ارتمت .. واربدت . وعلا الزبد شفتيها .. ندت عن صفوان ندة عنيفة حدق فيها طويلا ثم فتح لها ذراعيه .. وأخذها إلى صدره الممتلئ بالشجن وراح يبكى مثل ما تبكى .. ويتوجع مثل ما تتوجع . شعرت روح الفؤاد بحرارة أنفاسه .. وقوة ذراعيه رغم الوهن الذى أصابهما فعادت تقول وقد لاح بصيص من الأمل فى عينيها :

– أريد أن أراك مثل ما كنت أرى فيك إشراقة الوجه وتألق العينين وعذوبة الحديث . واسترسلت تقول وقد اشتعل وجدها :

– أريد أن أراك مثل ما كنت يا زوجى الحبيب .

وقف أمامها صفوان متوجع النفس وطفق يحملق فيها طويلاً .. يأتى إليها ثانية ويقبل غرة وجهها . تلامس لحيته المخضلة بالدموع سعير وجهها فتسرى فى أوصالها .. مشاعر عذبة .. أطفأت جمرات اللهيب المشتعل فى كل ما فيها .. سكتت واطمأنت . ترك صفوان زوجه .. وبارح داره خرج إلى براح الأرض .. استقبلته حقول ممتدة قد

تشققت وتعرت .. تعربد فيها فئران وجرذان سوداء كالحة اللون .. تناثرت نظراته .. تباعدت وتقاربت .. امتدت على مرمى بصره .. نباتات الحلفا وغطت حنايا الشطآن وحواف الأرض .. تسمرت قدماه بالأرض عندما رأى ثعباناً طويلاً ينهش طائراً بين فكيه المرعبين .. والطائر يئن ويتوجع . تحجرت عيناه فزعاً . تقهقر صفوان إلى الخلف . رأى آخر يندفع سريعا إلى الشقوق المتفتحة ، تقلص وجهه ألماً ، وسرت فى أغواره مشاعر مفعمة بالتصدع والإحباط . أخذ صفوان طريق النهر . طالعه النهر وهو ينفض على شاطئه أكواماً من النتن والعفن . قد غطت مساحاته الرقراقة .. وسدت مساراته .. وانحبس الموج منكسراً مستكيناً . تأرقت عيناه وهو يرى الماء المخنوق ينسحب من تحت بساط النباتات المنبثة فى كل مكان . ظل صفوان يسير .. ويسير على امتداد الشاطئ والأرض تمتد أمامه .. شحوباً .. وعراءً .. والطيور فى أجواز الفضاء .. تترنح ويخبو صوتها ويستكين فى صمت وسكون .

أوغل صفوان فى صوت عميق .. انفكت حروف الكلمات .. ذابت وتوارت . وبقى الصوت الصامت يغوص فى أعماق ما فيه .. غير أن عينيه كانت تنطق مرارة وحزناً وألماً .

يستند على جذع شجرة ويفكر .. ويشرد .. وتسافر نظراته بعيداً .. بعيداً هنالك إلى الربوة العالية وهى تتوسد على صدورها القبور .. ويحط شروده على قبر خاله همام .. ويتجسد القبر أمامه بأنوار متألقة ويخرج خاله من أكفانه .. حاملاً بين يديه ملاحم ما فعل .. ويندفع بالحصان الأصهب من حافة الربوة ويجرى إليه وفى لمح البصر .. يمتطيه الفارس الجسور ويعلو به فوق هامات الأشياء .. ويسبح فى بحر النور .. وتظل أفكار صفوان .. تعلو .. وتعلو .. إلى أن يرخى عينيه .. وتستكين الجفون .. عندما يتوارى الفارس الجسور . ثم تلوح حقائق

الأشياء ثابتة قاطعة .. دامغة . أخذت الجولة المكلومة المثلومة صفوان إلى وهاد عميقة .. تقذف لهيب الجمر ، وما أن يكاد صفوان يحترق بها .. حتى يرى عبد الرشيد يقبل عليه ويقول فى حب ومودة : - أدركت أنك .. هنا فأتيت إليك .

- ......

- وأعلم أن هذه الجولات اليومية أسيرة إليك .

- ......

- وأعرف أنك تحب أن تسمع منى . . ما تحب أن تستمع إليه .

وأمسك عبد الرشيد بيد صفوان .. وسار به إلى الذى يحبه .. وهنالك .. عند عريش وارف الظل وبين نخلتين طويلتين باسقتين .. ومع طائر رخيم الصوت . كان الملتقى . أسبل صفوان جفنيه .. وتألق وجهه برموز وإشارات .. جعلت عبد الرشيد يدقق فيه النظر .. ويمعن التحديق . ارتكز عبد الرشيد على عصاه وحاول أن يعرف ما فى أعماقه وأن يسبر أغواره ليدرك إلى أى مدى سيظل صفوان فى هذا الصمت العميق .. لقد طال واستطال وصار رمزاً للحزن كله . فك صفوان جفنيه .. وسطع النور نفاذاً من كل ملامحه :

قال عبد الرشيد بصوت جلى :

- الكل فى القرية يسأل عنك .

-.............

-الكل يريد أن يراك .

- ....

- الناس تحبك .

ندت الدموع من عينى صفوان .. وانسالت خيوطها على لحيته .. فتألقت قطراتها على الأبيض والأسود . عاود الأمل عبد الرشيد فمضى يقول :

- سأقول أنا ما قلته لنا من قبل .

رفع صفوان رأسه إلى عبد الرشيد .

استجمع عبد الرشيد زمام نفسه واسترسل .

- علينا أن نبدأ لنعرف سر الحكاية .

غاصت نظرات صفوان في وجه عبد الرشيد .

مضى عبد الرشيد في حديثه :

- ومن يفك رموزها يا سيد صفوان . ؟

غرق صفوان في الدموع .. وأوغل في الصمت وقال عبد الرشيد بتأثر شديد :

- سأقول أنا ما قلته لنا من قبل يا سيد صفوان ، ويبلع عبد الرشيد ريقه ويقول :

- الذى يعرف سر رموزها هو الذى يفك ستر ما فيها .

ينصرف عبد الرشيد وقد بلغ به الأسى مداه .

ويذهب صفوان إلى منزله .. حيث الليل والسكون والصمت . فيرى زوجه روح الفؤاد .. هائماً في فيض من نور شفيف يطوق رأسها بقبلة دافئة .. ثم يهتف فى أعماقه .. فى كل أعماقه .. نداء كل ليلة .. نداء موشى بكل الرموز والإشارات . فيخرج صفوان إلى البراح الرحيب .. ويصمت .. ويرهف السمع طويلاً فلا يسمع إلا صدى ترانيم ناى مصباح ممتزجاً بصهيل الخيول .

الزقـــازيـــق

١١ أبريل ١٩٩٥

صدر للمؤلف

(١) " .. الفارس الآتى إلينا " مجموعة قصصية ، صدرت على نفقة المؤلف عام ١٩٨٠ .

(٢) " أنشودة البطل " رواية صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٨١ وهى الرواية الفائزة بالجائزة الثانية فى مسابقة نادى القصة عام ١٩٧٤ .

(٣) " عيون فى وجه القمر " رواية ، صدرت عن الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة الرواية العربية ١٩٨٧ .

(٤) " سنوات الحب والموت " مجموعة قصصية ، صدرت عن الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة أدب أكتوبر ١٩٨٨ .

(٥) "ثأر الموتى " مجموعة قصصية ، صدرت عن الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة قصص عربية ١٩٨٩ .

(٦) " رائحة النبع " قصص طويلة ، ومجموعة قصص قصيرة ، صدرت عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٥ .

أقلام مصرية

صدر من هذه السلسلة :

وما زال الدم يبوح	شـــعـــــر	محمد فهمى سند
تيك أواى	قـــصـص	حجاج حسن أدّول
الحرب الثالثة	روايــــــة	عبد المنعم السلاب
أمواج في بحر الحروف	شـــعـــــر	فوزى خضر
بكائية للوطن والغربة	قـــصـص	رأفت سليم
فنون الواو - الموال - الموشح	دراسات نقدية	عبد الستار سليم
الزجاج المكسور	قـــصـص	د. غبريال وهبة
شقة الهوى والهوان	روايــــــة	د. إيهاب سلام
اسكندرية المهاجر	شـــعـــــر	أحمد فضل شبلول
تغريبة الخواص	روايــــــة	عبد الحميد السداوى
ظل باب	قصص قصيرة	أحمد محمد حميدة
الخيول الشاردة	روايــــــة	بهى الدين عوض
طوفان النار	قصص قصيرة	محمد حافظ صالح
أيام زمان .. أين أنت ؟!	قصص قصيرة	هشام قاسم
على المواجع	شـــعـــــر	على السويدى
حبيبتى والخيل والضفيرة	شـــعـــــر	محمد صلاح الدين السعيد السقا
لو أنك يا حب تجىء	شـــعـــــر	ناجى عبد اللطيف
انشطار التاج	مـســرحـيــة	محمد حمد حمد
احضنوا الشمس، المولود .. المفقود	مسـرحـيـتـان	محمد كمال محمد
ابن عروس ، الفلاح الفصيح	مسـرحـيـتـان	محمد نصر يس

